نجوى حسن

في ظلال الإبداع

مع الشاعرة سعاد الصباح

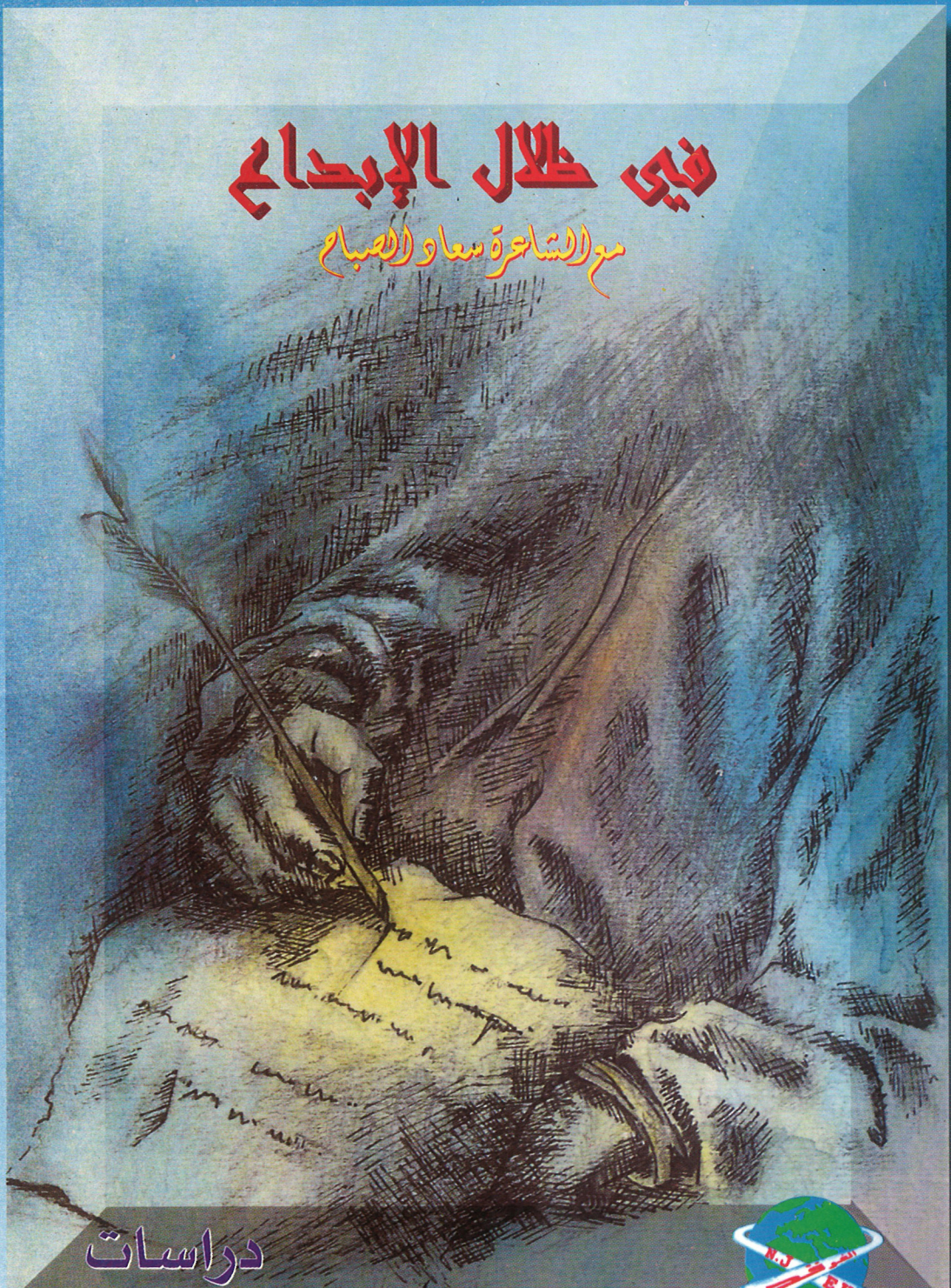

دراسات

دار الفرقد
للطباعة والنشر والتوزيع

في ظلال الإبداع

مع الشاعرة سعاد الصباح

نجوى حسن

في ظلال الإبداع
مع الشاعرة سعاد الصباح

تأليف: نجوى حسن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق
هاتف 6618303
ص.ب 34312

الطبعة الأولى عام 1999
عدد النسخ (1000)

نجوى حسن

في ظلال الإبداع
مع الشاعرة سعاد الصباح

شاعرة تكتب بفيض الروح والقلب

بقلم: طلعت سقيرق

سعاد الصباح شاعرة تأبى الركون إلى حالة الحرف الساكنة، وترفض في كلّ الحالات النوم على فراش مصنوع من قطن الرتابة والاستكانة. لذلك كانت القصيدة دخولاً في التجاوز بغير حد، وغوصاً في القبض على جمرة المغاير دون توقف.. فالمسيرة الشعرية تبدأ من نقطة الحبر الناريّ، ولا تنتهي عند نقطة الحبر المشتعل غضباً وحباً وعنفواناً وشموخاً وعطاء لا ينضب، لأنّ الخطوات التي أدمنت خمرة الشعر وسكرته، ما كان لها أن تتوقف عند حدود مرسومة بالطبشور على جدار ما..

هكذا هي سعاد الصباح، شاعرة تسير على حدّ الحرف، ولا أقول حدّ السكين، لتلفظ الحروف ناراً لا تهدأ في معركة الدفاع عن هوية المرأة الإنسانة، والمرأة الشموخ، والمرأة الأصالة والفكر والعلم. فالشعر عند سعاد لا يهادن ولا يجامل، ولا يريد بأيّ حال أن يخضع لقانون الكافي يكفي، إذ من غير الممكن لشاعرة كهذه، أن ترمي أسلحتها في معركة الحفاظ على الذات المتميزة المبدعة، وفي معركة الدفاع عن حق المرأة من أن تكون إنسانة كاملة الإنسانية، لها ما لها وعليها ما عليها، دون أي تمييز لا مبرر له مهما كان نوعه..

هل هذا ما أرادت أن تقوله الأديبة القاصة نجوى حسن في كتابها الذي راح يدخل شعر الشاعرة ويقلبه في إصرار على التواصل مع الحروف وأبعادها بنبض يتوحد ولا يتبدد.. وكأنّ القولين قد اتحدا في

قول واحد، وراحا يعزفان على وتر واحد، وصولاً إلى وضع الرجل أمام مرآة تريه الكثير من ملامح الصّغار في معاملته للمرأة، وتضعه أمام الكثير من التناقضات في شخصيته، وهو يتحدث عن الأنثى بكلمات ولا أحلى، ثم يروح في معاملتها وكأنها جارية.. أليس كلّ ذلك نتاج شرخ توضّع في تربية الذات الذكورية، فجاءت على هذا الشكل من التناقض الصارخ في كثير من الأحيان؟؟..

قد نصاب نحن الرجال بالارتباك وغير قليل من الغضب، حين نرى إلى هذا الكمّ من المواجهة الصريحة الصارخة بما فينا. وكأنّ العادة والتعود قد جعلانا نؤثر الركون إلى الثبات في الأشياء دون التفكير بما فيها من أخطاء. فالركود المهيمن على المشاعر، والثبات في الصورة المتوارثة، والتعامل الدائم مع تفضيل المولود الذكر على المولود الأنثى وكأنه قانون أبديّ، كلّ ذلك جعلنا نضع الأمور في إطار لا يتغير من معاملة الأنثى على أنها أوفى من الذكر دون وجه حق.. وإذا كنا نعترف بذلك صراحة أفلأنّ الإطار ما زال في كثير من الأحيان على حاله.. فماذا نقول أمام المكتوب عنها (الشاعرة سعاد الصباح) والكاتبة عن فيض هذا الشعر وفيضانه نجوى حسن؟؟..

إنه الشعر الجميل الجريء المعبر عن عطاء كبير مبدع الشعر الذي يستطيع أن يصل إلى المدى الأبعد بصدقه وبساطته وقدرته على المنح من قاموس الحياة بكلّ دفئها وحنانها وجمالها. فالشاعرة سعاد الصباح تكتب بفيض الروح والقلب، تكتب بأصابعها العشرة مثل أيام عمرها.. تكتب بكلّ دقائق وجدها دون خشية من رقيب. ومثل هذا الشعر لا يحتاج إلى طويل زمان ليصل إلى العقول والقلوب والمشاعر. إذ نعرف جميعاً أن سعاد الصباح شاعرة قريبة كل القرب، متميزة كلّ التميز، مبدعة كلّ الإبداع، وشعرها من النوع البسيط الممتنع، إذ يدخل القلب دون استئذان، ويسكن العقل دون أن يبرح. وهذا سرّ وصولها إلى الجمهور العريض، وإن كانت تثير أعصاب الرجال في تحديها الجريء الجميل.

وإذا كانت سعاد الصباح كذلك، فإنّ نجوى حسن أميل في كلّ ما تكتب إلى شاعرية الحرف، لذلك كان تآلفها طبيعياً مع سعاد الصباح، وكان ميلها نابعاً من صدقها مع ذاتها. فهي في كلّ الحالات تقف إلى جانب سعاد الصباح في مواقف الدفاع عن حقوق المرأة، والعمل على إعطائها كلّ ما تستحق من تقدير واحترام واعتراف بإبداعها خاصة، وإنسانيتها عامة. إذ بأي شيء يختلف الرجل عن الأنثى، وبأي شيء تختلف الأنثى عن الرجل.. أليس كلّ واحد منهما يكمل الآخر؟؟..

قد أرى في بعض الأماكن مبالغة أو شطحاً في الهجوم على الرجل، وكأنه صار عدواً حقيقياً على المرأة أن تحاربه وترميه بكلّ ما عندها من أسلحة قد أرى كلّ ذلك، دون أن أغمض العين عنه، لأنّ الرجل في كلّ الحالات، ليس عدواً، ولن يكون.. وإذا كانت الأخطاء التي ترتكب بحق الأنثى واقعاً لا ينكر، وإثماً لابد من الاعتراف به، فإن ذلك لا يعني أن نحول الأمر إلى حرب، أو ما يشبه الحرب..

أنتقل إلى دراسة نجوى حسن التي أخذت شكل فصول، أو عنونات انقسمت إلى تناول مواضيع شعر سعاد الصباح، لأرى أنّ الكاتبة استطاعت أن تغطي مساحة شعر سعاد الصباح باقتدار. كما استطاعت أن تواكب نشيدها الطويل بتميز. فلم تكن نجوى حسن فيما كتبته مجرد قارئة للشعر، بل كانت في الأغلب الأعم شاعرة تداخل حروف شاعرة لتضعنا أمام صورة زاهية من النقد الجميل الموحي الذي يستطيع أن يسبر عمق القصيدة ليصل إلى مؤداها ومبناها ومبتغاها بصورة أخّاذة.

مثل هذا الكتاب ينال باقتدار ميزة النقد البناء الجميل، النقد الذي يفرد أجنحة من ذهب الصباح ليقول شعراً عن الشعر، وصورة أرقى عن القصيدة الأخاذة ذات الوقع النابض..

كم تبقى من وقت كي تأخذ القصيدة الأنثوية قيمتها الحقيقية، وكي تأخذ الأنثى حقها في الوقوف بثبات وشموخ وأصالة إلى جانب الرجل دون أي فاصل أو تفريق مهما كانت الأسباب والدوافع؟؟.. وكم تبقى كي يعترف الرجل بانّ الأنثى لا تقل إبداعاً، ولا يمكن أن تقلّ،

عنه؟؟ تلك مسألة يجب أن تُحسم دون مدّ في نفس الوقت.. كي تتفرغ المرأة حقاً لإبداعها وأدبها وعطائها الجميل..

مرحى لكاتبة تبدع في مداخلة عطاء شاعرة متميزة قادرة على كتابة الحروف بنار وورد.. ومرحى لشاعرة تضع النقاط على الحروف، ليكون شعرها عالي القامة، مرتفع الجبين، أخّاذ الوقع..

ويبقى أن هذا الكتاب يستحق أن يقرأ بكلّ الهدوء والروية.. لأنه يقدّم مداخلة جميلة بين شاعرة وقاصة، لكل واحدة منهما اعتزازها الرائع بأنوثة تستحق أن تكون دائماً في المقدمة، ولا معنى لأن ترجع الأنثى خطوة إلى الوراء، بل من حقها أن تكون إلى جانب الرجل تماماً. فلماذا لا نقرأ الشاعرة والقاصة في هذا الشموخ الجميل الأخاذ، وهذا العطاء المبدع المليء بسنابل القمح؟؟.

طلعت سقيرق

دمشق في 1999/10/19م.

مقدمة

عندما تجد نفسك أيها القارئ العزيز، مضطـــرب الأفكـــار، مشوش النزعات، ضبابي الرؤيا، قلق التصرفات، خالياً من الأنيـــس الجليس أو الصديق، أرهقك العمل، أضناك الوجد، جن بك الشوق... تلاطمت أمواج الهيام بنفسك وتبعثرت حبال المنى في داخلك. هيـــا بنا ندخل حديقة من حدائق الكويت الشقيقة وشتّها أنـــامل الشـــاعرة سعاد الصباح، أو آثاراً من آثارها العريقة نعلو قمة مجـــد، نعـــانق أشواق السعادة، نتكئ في ظلال الأحلام السعيدة، علّنا نخفف شـــيئاً مما بنا، أو نرسل عبر الأثير دفء أشواقنا وعطر محبتنا. من خلال حدائق وإبداع الشاعرة الكويتية سعاد الصباح في جو من الرومانسية الشيق الذي أضافت إليه نوعاً من التجديد، وصرحاً مـــن الكمـــال. ألبسته حلة جديدة من نسج يراعها الوهاج، فأبدعت لنا قالباً رومانسياً عصرياً فيه عراقة جذور الماضي، وحداثة أوراق الحاضر، ومتانـــة غصون المستقبل. فيه بحر زاخر من الأحـــلام، وكـــم وافـــر مـــن المفردات. وصور ساحرة لمعاني الحياة.

ندخل عالم سعاد الصباح بكل ما فيه مـــن جمـــال الطبيعـــة والحياة، وعراقة الأصل والدم العربي، والوطنية الصادقة الملتحمـــة بالتراب، والإباء الذي يرفض الذل والمساومة. نحلـــق فـــي عـــالم انصهرت فيه المادة مع الروح. فبدا نسيجاً براقاً للحب يـــهواه كـــل إنسان ويسمو به ويهفو لتحقيقه.

وتذيبنا الأمومة بنشوة الحياة وحلم المستقبل، تجدد فينا الأمـــل

وتُعيد ترميم فجوات اليأس. تعلمنا الصبر علـــى القضـــاء والقـــدر وتخطي الصعاب بالإيمان بالله عز وجل.

ونرى شعلة متوهجة للثورة. فالثورة لها طريقان مختلفـــان إلا أنهما يصبان في بحر الانقلاب الجـــذري. الأول خـــاص، والثـــاني وطني قومي عام.

فالثورة الخاصة عند الشاعرة سعاد الصباح هي تمرد علـــى الواقع المرير: العادات، التقاليد، الســـلفية الموروثـــة، الاضطـــهاد، ممارسة السلطة وإلى ما هنالك مـــن أنـــواع الأســـر، والاحتـــلال، السيطرة وفرض الحماية على صعيد المرأة. والثانية هي ثورة ضـــد الاستعمار فيها حض على الجهاد والدفاع عن الوطن، فيـــها حـــث مميز لفداء كل حبة تراب من أرض الوطن بالأرواح. فيها تعريـــة للزيف بالحس القومي فالشعور القومي هو فعـــل وفـــداء لا انتمـــاء بالهوية فحسب.

لم تترك الشاعرة مجالاً في كل مجالات الحيـــاة إلا وطرقتـــه بأحرفها المشعة وجرأتها المميزة، وكلماتها الصادقـــة، وصورهـــا الفتانة، وألوانها الجلية الساطعة كحزمة الشمس. فأنتجت بذلك روضاً فيه الحب والوجدان، فيه الإنسانية والوطنية، فيه الرثاء، والكبريـــاء، وعزة النفس والإباء والتمرد. فيه الحنان والشوق، فيه جذور القومية العريقة والأصالة الشامخة، هكذا تطالعنا الشاعرة بحدائقها الغنـــاء.. بأنواع الأزهار والورود، والرياحين الربيعية الفاتنـــة، والخريفيـــة الهادئة. والصيفية الناضجة. ومن قلب قلب جليد الشتاء يبزغ لنا نوع من الورود تصهر الثلج وتبعث الدفء في النفوس. لكنها ورود مـــن نوع جديد اشرأبت من أنقاض اليأس والقنوط وأشرقت فـــي قـــالب

الخلود بين طيات الدواوين. ومـــا عليـــك إلا أن تفتـــح الصفحـــات لتستنشق من عبير شذاها كل أنواع العبير، فتحلق بها في الأجـــواء وترتفع وتخرج من عالم الواقع المبتور الذي قتلت جمالـــه المـــادة والجشع والفقر. ولم يبق فيه أي منفذ يغذي الروح وإن وجـــد فـــهو نادر أو من أجل مصلحة ما.

تميزت دواوين الشاعرة سعاد الصباح بالرومانسية المتوجـــة بصدق الإحساس والأسلوب السلس، والكلمـــة الملتصقـــة بـــالواقع. بسيطة اللفظ، قوية المعنى، ومتينة الربط، جميلة الصورة، جريئـــة الموقف، ندية التوجيه والنقد، بعيدة عن التصنع في طرح ما تريـــد. فباتت من أفضل شعراء العصر بما أضفت على تعابير اللغـــة مـــن أعماق ملتهبة سائلة كل ما يعترض طريقها، غير آبهة بمن ينجـــوف في طغيان حقائقها، وبمن تدميه أشواك حروفها. معتمدة بذلك علـــى الوثائق والقرائن الثابتة الواضحة، والصور الدقيقة لمسيرة التـــاريخ الماضي والحاضر الأليم الذي لفها. ولـــف الأمـــة العربيـــة عامـــة والكويت خاصة.

انبثق فجر التحرر في نفس الشاعرة سعاد الصباح منذ نعومـــة أظفارها فكان ميلاداً جديداً أُضيف إلى ميلادهـــا الحقيقـــي. ميـــلاداً يبحث عن الخلاص والتحرر من قوقعة المـــاضي، مـــن كـــابوس الحاضر، فأخذت تنشر النور في الدهاليز المظلمة العاتيـــة، فبـــدأت بتصوير خلجات وأحاسيس نفسها لتخفف من بركان ثورتها. فكتبـــت (ومضات في الذاكرة) لكنها كانت البداية التقليدية التي يمر بها كـــل كاتب، إلى أن تتوضح لديه المعالم الحقيقية التي يريدها فعلاً فكـــان لها ديوان أمنية ثم توقفت إثر المصاب الذي ألم بها، لتنطلق بعدهـــا

كالحمم "وكان إليك يا ولدي" ثم تتابع العطاء الزاخر في فتافيت إمرأة ثم برقيات عاجلة إلى وطني ثم في البدء كانت الأنثى، هل تسمحون لي أن أحب وطني، قصائد حب، وآخر السيوف.

لنقف لحظات مع تاريخ الشاعرة الخاص. لنؤكد أنّ انبثاق فجر التحرر هذا ما هو إلا اندلاع لموهبة فذة، وذكاء متقد، وإنسانية عامرة. حالت بين الشاعرة الإنسانة، والمرأة التي انحدرت من أصول عريقة ذات مكانة اجتماعية مرموقة، وثروة طائلة تؤمن لها كل متطلبات الحياة من الرفاهية والسعادة حتى السلطة. لكنها رفضت أن تكون امرأة عادية. فاستجابت لنزعتها الإنسانية وتابعت دراستها فحصلت على بكلوريوس...، فماجستير في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة القاهرة. ثم دكتوراه في التنمية والتخطيط من لندن. وأصبحت أستاذة في الاقتصاد لتساهم في رفع وتطوير الفكر الاقتصادي الكويتي.

ثم أصبحت عضواً في المنظمات والمجالس التالية:

عضو في المنظمة العربية لحقوق الإنسان، في منتدى الفكر العربي في عمان، مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، في المجلس العربي للطفولة والتنمية، المنظمة العالمية للنساء المسلمات، في مركز الدراسات العبرية في جامعة اليرموك، عدا عن الكثير من المشاركات في الأنشطة الاقتصادية والسياسية والثقافية في الوطن العربي، لكنها لمعت وأشرقت وأبدعت في عالم المرأة (المرأة ذاك القلب الكبير الذي يتسع لكل متناقضات الحياة، يتحمل شظف العيش، ومرارة الحرمان وعنف السلطة البيتية. وكابوس الظلم والتبعية والاستبداد. إضافة إلى أعباء الأنوثة في الحمل والولادة. بفم صامت

وأنين مبحوح، وقلب كليم ولسان أخرس وعينين غلفهما الضبـــاب.. وحجبهما عن الواقع الستار، ستار السلفية والفوقية والغطرسة مـــن الجنس الآخر)

كل ذاك أثار مكامن الفلذات في نفس الشاعرة، وبدأت تتململ من الرزوخ تحت هذا العبء الثقيل.

فدوت صرختها الأولى من صفحات أمنية، لتعلن بداية ثورتها ورفع لواء التمرد والتحرر. معلنة عن نفسها فـــي مقدمـــة الكتـــاب بطريقة فريدة من نوعها. تجاوزت العرف والعادة في التقديم لكـــل الكتب الأدبية والدواوين الشعرية حين أهدتنا مقدمة شـــعرية وفـــق نموذج أنيق تتجاوب فيه موسيقى الكلمة مع وزن القافيـــة وخيـــال جامح خصيب يربط بين الحقيقة التي تئن داخلها والمـــرام المحـــال بتشبيه بليغ وعرض شيق فتقول:

كلماتي أحرف من خيال..
ونبض قلب عاش يبغي الكمال..
يقدس الحب ويهوى الجمال..
فإن أثارت فيك بعض انفعال
فذاك لي حلم شهي المنال
وإن أثارت فيك حب السؤال
فسل، تجدني ما عَرَفتُ المُحال
الشعر في روحي أعز ابتهال

سأدخل لعالم أعماق الشاعرة عبر النوافذ التي تملـــك كمـــاً وقدراً من الإقـــدام والجـــرأة، والثبـــات والإصـــرار، والوضـــوح والتحضر. ووجدت بذلك نافذة المرأة في نبض سعاد الصبـــاح، ثـــم

الحب، ثم التمرد والثورة، القومية والوطنية، الأمومة والرثـــاء، ثـــم الوجدانيات والرجاء. والتأمل.

هذا وقد حرصت على كتابة معظم القصائد لأنني لم أستطع أن أختصر أي كلمة من أي قصيدة وذلك لخلو قصائدها من أي حشو أو زيادة أو تكرار.

وأتمنى أن أكون قد وفيت هذه الدراسة ما تستحقه من التعبـير عن مكنون الشاعرة وما أبدعته لنا في كل المجـــالات، والله ولـــي التوفيق.

نجوى

المرأة في نبض سعاد الصباح

لقد اندست الشاعرة سعاد الصباح بين خلايا كل إمرأة عربية، ومنحت نفسها بطاقة مرور وتصرف، فبدأت تفكر عنـــها ومعـــها. وتعاني آلامها، وتشعر بما تجيش فيه نفس كل إمرأة، وفـــي ذهنـــها نزعة إنسانية لتوطيد العلاقة بين الرجل والمرأة في شـــكلها الســـليم خارج إطار الحب والجنس والزواج، فنراها تشهر قلمها في وجـــه الظلم، وتبدأ بتشريح الاستبداد، وتســـليط الضـــوء علـــى الدهـــاليز المظلمة.. والبؤر العفنـــة. والعقـــول المتحجـــرة،.... ، والســـلفية الموروثة لسيادة الرجل أياً كان دون الرجوع إلى أي فـــارق يمـــيز المرأة عنه...

لقد اعتمد الحدس الفكري عند الشاعرة على خطين متوازيـــن ومختلفين. فالأول يشـــكل عنصـــر اليـــأس والإحبـــاط، والازلال والضياع، والليل والقسوة، الملل والانصياع! والآخر يشـــكل الأمـــل والرجاء، الكبرياء والإصرار، العزيمة والإرادة القوية. تسخر بذلـــك الرومانسية لخدمة الثورة الشعرية لتحرير المرأة تســـخيراً إيجابيـــاً متخذة سلاماً لتصحيح الأوضاع الخاطئة ووضع الحق في مكانه قدر المستطاع. لنبدأ باليأس الذي يحيق بالمرأة من الرجـــل ثـــم تنتـــهي بالتمرد وإعلان الثورة. فها هي تقول:

ويل النساء من الرجال إذا استبدوا بالنساء
يبغونهن أداة تسلية، ومسألة اشتهاء
ومراوحاً في صيفهم، ومدافئاً عبر الشتاء
وسوائماً تلد البنين... ليشبعوا حب البقاء
ودُمى تحركها أنانية الرجال كما تشاء

وثِلُ للرجل الإلـه كـأنه رب السـماء
ما دام يمنحها المـؤونة، والقلادة، والكساء
لا لن نذل، ولن نهون، ولن نفرط في الإباء
لقد انتهى عصر الحريم وجاء عصرُ الكبرياء
وجلا لنا حق الحيـاة، فكلنا فيه سـواء

بهذه الكلمات الجريئة تعلن الشاعرة التمرد، وعدم الرضـــوخ للذل، والهوان، رافعة لواء التحدي لكلّ سلطة استبدادية ورضـــوخ أعمى، ضمن قالب من الإبداع في وحدة الشكل والمضمون والوزن، ولكن بإسلوب جديد..

تنتقل تباعاً من قصيدة لأخرى ترصد فيها المعاناة بكل ألـوان التسلط والاضطهاد والقهر الأزلي والذي تعاني منه المرأة منذ الأزل وحتى يومنا هذا. ولكن بشكل متمـيز. وعـرض شـيق بأسـلوب رومانسي رقيق لا يجرح المشاعر ويثير زوبعة من التمرد.

ففي قصيدة المجنونة توضح لنا معنى الجنون والعقل في نظر المجتمع ونظر الإنسانة الثورية. فما اعتبره المجتمع عقلاً وتعقـــلاً يتمثل في المحافظة على التقاليد والعادات والاســتقرار بـالرضوخ للواقع أياً كان. والجنون هو تغيير الواقع والتمـرد علـى العـادات والمفاهيم البالية. ولكن العقل والتعقل عند الشـاعرة هـو التطـور وتجديد الحياة. والتأقلم مع قوانين الطبيعة والمشاركة في صنع هـذه القوانين والانصهار بموكب الحياة. والجنون هو التمسك بالعـادات البالية لدرجة التزمت، والجمود ضمن قوقعة الماضي والوقوف على هامش تطور الحياة. دون الانخراط فيه والتفاعل معه فنراها ترفض كل ذلك من خلال قصيدتها المجنونة:

إنـني مجنونة جداً
وأنـتم عقـلاء....
وأنا هاربة من جنة العقل
وأنـتم حكمـاء...
أشهر الصيف لكم
فاتركوا لي انقلابات الشتاء..
أنا في حالة حب.. ليس لي منها شفاء
أنا مقهورة في جسدي
كمـلايين النسـاء...
وأنا مشدودة الأعصاب
لو تنفخ في داخل أذني
لتطايرت دخاناً في الهواء..
إنني ضائعة كالسمك في عرض البحار
فمتى تنهي حصاري
يا الذي خبأ في معطفه مفتاح داري
يا الذي يدخل في كل تفاصيل نهاري
يـا حبيبي
إنني دائخة عشقاً
فلملمني بحق الأنبياء
أنت في القطب الشمالي
وأشواقي بخط الاستواء
يـا حبيبي
إنني ضد الوصايا العشر

والتاريخ من خلفي دماء ورمال
إنتمائي هو للحب
ومالي لسوى الحب انتماء
وطني
مجموعة من شجر الليمون في صدرك
والباقي هُراء... بهراء

رأينا في هذه القصيدة نماذج للتحليق الشعري وقد تميزت بروعة الوصف ودقة التعبير والأسلوب المباشر بعيداً عن الكلمات الغامضة التي تحتاج إلى فهارس وقواميس لشرحها. إنه إبداع في التحليق والخيال. وإبداع في وصف المشاعر ودرجة غليانها. مقابل برودة الحب عند الطرف الآخر، فالنقيض دائماً يبرز شدة النقيض الآخر.

لننتقل إلى وجه آخر من المعاناة الموشاة ببوح من الحب تحتضن فيه قسوة الرجل بحنان مرهف، وتمازج فوّاح، تخاطب ثقافته، وحضارته، وعصره، بشفافية رقيقة، وكلمات محرقة وصاعقة، تريد من خلالها انتشاله من قوقعة السلف وإيقاظ نقاط ضعفه.

بدأت قصيدتها بتوجيه كلمات الحب المشروطة بـ (لو) – وهي كما نعرف حرف امتناع لامتناع– وهذا تأكيد على قوته، وعَظِم حبها كإنسانة. فغزلت بذلك الحالة الذاتية والإنسانية في لوحة واحدة وقد تمكنت أن تبني قصيدتها من كلمات فجرت في داخلها طاقات شعرية وبلاغة قوية وتراكيب لغوية أضافت إلى معالم اللغة العربية صوراً مشرقة وأحرفاً متضافرة الشكل والقافية والمعنى

والعمق، والوصف:

لـو كنت تعرف كم أحبك

لـم تعـاملني كـفرعون

ولم تفرض شروطك مثل كل الفاتحين

لـو كنت تعرف كم أحبك..

لـم تكرسني كأرض للفلاحة

شأن كل المالكين

لـو كنت تعرف كم أحبك..

لم تعاملني ككرسي قديم..

أو كنص في تراث الأقدمين..

لـو كنت تعرف كم أحبك

مـا قمعت

ولا بطشـت

ولا لجأت لحد سيفك

مثل كل الحـاكمين

يـا سيـدي

لـو كـنت تعتبر الأنوثة وصمة.

فوق الجبين

فما الذي أبقيت للمتحجرين

يا أيها الرجل الذي احتكر الذكاء

يا أيها القمر الأناني

الذي اغتصب السيادة في السماء..

ثم تكمل القصيدة بتوجيه المنظار لنقاط الضعـــف والأخطـــاء

التي يرتكبها الرجل.. ثم تتساءل أين هو المثقف الآن؟ من عصـــــر الانحطاط والرجعية. وماذا أعطته الثقافة؟ فتقول:

يـا من تعقدك انتصاراتي
وتكره أن ترى حولي
ألوف المعجبين
يا من تخاف تفوقي
أمثقف ؟؟
ويقول في وأد النساء
فأي ثقافة هذي... وأي مثقفين؟.
أمثقف ؟
و يريد أن يُبقي حبيبته بسرداب السنين
أتقدمي في كتابته؟؟
ورجعي بنظرته إلى الأنثى..
فإن ضحكت له إمرأة..
يخاف عذاب رب العالمين..
يـا من ينادي بالتسامح، والعدالة..
والتحرر في الهوى
آمنت إنك سيد المتعصبين
ما كان يخطر لي بأنك جاهلي..
من غلاة الجاهلين..
فكرت إنك طبعة أخرى..
ولكنني وجدتك
طبعة عادية كالآخرين...

آهة من الأعماق. مسح لقزحية عين الرجل الشـــــرقي نـــور اصفر ليخرق الضباب الذي يغلف عقلية الرجل تجاه المرأة، فـهو لا يستطيع أن يراها، ولا يمكن أن يشعر بها إلا كأنثى ضمن أضيـــق الحدود. وهنا تأبى الشاعرة تلك النظرة المقذّمة للمرأة وتبحث عـــن أداة صلبة ومرنة بوقت واحد كي تزيل تلك الغشاوة التي تقذم المرأة في عين الرجل... علّه يراها على حقيقة أمرها كيان نابض بـــالعقل والحكمة، والإنسانية، وكتلة مشاعر حية فيها الذوق الرفيع والحـــس المرهف والشفافية الغدقة التي تجعلها تمد يد الصداقة بكل الود فـــإن كف الصديق هي أروع في كثير من الأحيان من كف الحبيب، ونغم الكلمات هو أعمق وأحر من نغم القبلات لكن الرجل يظن أن المـوأة خلقت للآهات والقبلات وهو كذلك لا يراها إلا بما ترتديـــه وبمـــا وهبها الله من جمال في الشكل الخارجي ولا ينظـــر إلـــى عقلـــها وحكمتها وإنتاجها، وثقافتها فتراه يغلق في وجهها الحـــوار فـــي أي شيء. لذا تناجيه فتقول:

كن صديقي...
كم جميل لو بقينا أصدقاء
إن كل إمرأة تحتاج أحياناً إلى كف صديق
وكلام طيب تسمعه
وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات
لا إلى عاصفة من قبلات
فلماذا يا صديقي
لست تهتم بأشيائي الصغيرة
ولماذا؟ لست تهتم بما يرضي النساء

كن صديقي
إنني أحتاج أحياناً لأن أمشي على العشب معك
وأنا أحتاج أحياناً لأن أقرأ ديواناً من الشعر معك
وأنا كامرأة يسعدني أن أسمعك
فلماذا أيها الشرقي... تهتمُّ بشكلي؟
ولماذا تبصر الكحل بعيني
ولا تُبصر عقلي؟
إنني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار..
فلماذا لا ترى في معصمي إلا السوار..
ولماذا فيك شيء من بقايا شهريار..

وهنا عندما تذكر الشاعرة شهريار أول ما يتبادر لذهن القارئ عصر الحريم. فشهريار لا يعرف سوى الجنس والقتل أي شهوة الجسد والدماء.. لكن شهرزاد بذكائها وعقلها وحكمتها أو كما يقال بدهائها استطاعت أن تنجو من بطشه. فالمرأة تستطيع حماية نفسها بعقلها وليس بجسدها وإغرائها. وتصور لنا أن الرجل الشرقي لا يرى الرجولة والبطولة إلا في القهر والاستبداد والتسلط على المرأة حتى لو استسلمت له كل الاستسلام فإنه يعزيه لجبروته لا لعقلها ورزانتها. وهذه المناجاة هي من أعظم معاني الحكمة والعقل والرزانة عند المرأة وعند الشاعرة بالذات:

كن صديقي
ليس في الأمر انتقاص للرجولة

غير إن الرجل الشرقي لا يرضى بدور
غير أدوار البطولة...
فلماذا تخلط الأشياء خلطاً ساذجاً
ولماذا تدعي العشق وما أنت العشيق
إن كل إمرأة في الأرض تحتاج إلى صوتِ ذكي
وعميق
فلماذا تهمل البعد الثقافي
وتعتني بتفاصيل الثياب؟
كن صديقي
أنا لا أطلب أن تعشقني العشق الكبيرا
لا ولا أطلب أن تبتاع لي يختاً
وتهديني قصوراً...
وطموحي هو أن أمشي ساعات وساعات معك
تحت موسيقى المطر
وطموحي، هو أن أسمع في الهاتف صوتك
عندما يسكنني الحزن
ويُبكيني الفجر

كانت المرأة في الماضي تلهث وراء قصص الغرام والحب والعشق، ويتغنى الشعراء بحكايات الحب التي كانت تُحاك للنساء الجميلات، والتغزل بهن. لكن الشاعرة الآن ترفض كل قصص الحب القديم، ترفض أن تكون تمثالاً من الرخام أو قطعة حلوى أو زغاليل حمام. أو أداة إشباع وارتواء.. وعندما يفرغ الرجل منها ينام ملء جفونه.. إنها الآن بحاجة إلى السلام، والوئام، والهدوء،

والتقدير، والتأمل، والتفكير بين الرجل والمرأة ليعلم كل منهما مضمون الآخر وأبعاده وكنوزه. وطريقة تفكيره:

كن صديقي...
فأنا محتاجة جداً لميناء سلام
وأنا متعبة من قصص العشق وأخبار الغرام
وأنا متعبة من ذلك العصر الذي
يعتبر المرأة تمثال رخام
فتكلم حين تلقاني
لماذا الرجل الشرقي ينسى
حين يلقى إمرأة، نصف الكلام؟
ولماذا لا يرى فيها سوى قطعة حلوى
وزغاليل حمام
ولماذا يقطف التفاح من أشجارها
ثم ينام..

تتابع الشاعرة موجة الرفض والتمرد على الحرمان والرضوخ لمشيئة الرجل كما كانت أسلافها.. تتكلم بلسان كل إمرأة في العالم عربية لاتينية – صينية إنها تريد أسلوباً آخر. تطالب بالمعاملة بالمثل بين الرجل والمرأة... تطالب بحقها كإنسانة وليس كامرأة كما كان أجدادها وأجدادهم. تخاطب الرجل بطريقة وديه وبسيطة تخاطب فيه الثقافة التي تربع فوقها منذ الأزل إذ تقول:

لا تقرأني
من اليمين إلى اليسار
على الطريقة العربية

ولا من اليسار إلى اليمين
على الطريقة اللاتينية
ولا من فوق – إلى تحت
على الطريقة الصينية
اقرأني ببساطة
كما تقرأ الشمس أوراق العشب
وكما يقرأ العصفور كتاب الوردة
ليست الديمقراطية
أن يقول الرجل رأيه في السياسة
دون أن يعترضه أحد
الديمقراطية أن تقول المرأة
رأيها في الحب
دون أن يقتلها أحد..

تنبيه محترق الحواف. نداءات للإقلاع عن القسوة والتسلط، تسامح لكل نزواته، تُبيح له كل شيء إلا الظلم. صورة فاتنة لتضحية المرأة ومقدار تسامحها وودها، إلا أن تُمسَ كرامتها وحريتها. رفض قاطع للظلم إذ تقول:

رجل أنت مكتظ بالنساء حتى التخمة
وحين تأتيني مساءً..
مثخناً بالكحل، والعطر، والأظافر.
أمسح جراحكَ بماء الورد
وأتوسل إليك، أن تخلع خوذتك
وترمي سيفك على الأرض

وتجعلني

معركتك الأخيرة.

وجه آخر ونوع جديد للمعاناة. عرض لأسلوب آخر من التسلط والتبعية التي يفرضها الرجل وبشتى الطرق على المرأة تقول الشاعرة:

كنت أظن إن عمليات غسل الدماغ

هي من طبيعة الدول الاستبدادية

بعد أن عرفتك

وغسلتَ دماغي

في كل المقاهي التي دخلت إليها قبلك

وكل الشواطئ التي كنت أستحم في مياهها قبلك

وكل الرجال الذين دعوني إلى العشاء قبلك.

بدأت أفهم

إن القمع السياسي

والقمع العاطفي

هما مؤسسة واحدة.

تساؤلات مدهشة حول التناقض الغريب الذي يكتنف الرجل وشخصيته. فعندما يتحدث عن المرأة ينطلق لسانه بعفوية الانسان وحكمة عقله وبرفض كل الضغوط التي تشن عليها وتحاك ضدها.. ولكن العجيب هو أنه عندما يكتب ينسى ما تكلم عنه.. ويعود اللاشعور – المستوحى من السلفية الصارمة – إلى الساحة. فيضع المرأة في القفص ويمضي. تقول الشاعرة:

كم أنت بليغ ومتدفق

عندما تتحدث
عن مأزق المرأة العربية
وضرورة فك الحصار التاريخي
عن فمها
وعقلها
وجسدها المطمور تحت الرمل
ولكن ما يدهشني
إنك عندما تكتب
تضع المرأة دائماً
"بين قوسين"

ثم تصور لنا الشاعرة معنى وجمال الحرية على النفس البشرية فترسم لنا نفسية امرأة عربية في أي دولة أوربية. كيف تتصرّف بكل البراءة والعفوية وترفرف عليها السعادة، تحب وتزهو، وتتواضع، وتَرق وتتحول إلى إنسانة أخرى ولكن مجرد سماعها إعلان لحظات العودة تتحول إلى جبانة، يملأها اليأس والقنوط وتختفي البسمة لمجرد إحساسها بأنها ستعود إلى قضبان السجن كالدجاجة:

عندما تسافر امرأة عربية
إلى باريس.. أو لندن.. أو روما..
تأخذ على الفور شكل حمامة..
ترفرف فوق التماثيل
وتحسو الماء من النوافير
وتطعم بيدها بط البحيرات

وفي طريق العودة
عندما يطلب قائد الطائرة ربط الأحزمة
والإمتناع عن التدخين
يتبدد الحلم
وتجف موسيقى النوافير
ويتناثر ريش البط الأبيض
وتدخل مع بقية الدجاجات
إلى قنها

خيال خصب وثر يجمع بين عمق المضمون وأبعاد الفكرة. خالٍ من التكرار في المواضيع والتعابير والألفاظ. خالية من الرتابة المملة ففي كل قصيدة نموذج جديد وعمل جديد، فهي تستعمل كل الطاقات التعبيرية والتشكيلية في إقامة دعائم الرومانسية وباستعمالها مفردات من واقع الأشياء التي حولها في الطبيعة تعرضه لنا باسلوب غير مباشر وهذا ما تمتاز به الشاعرة.

في القصيدة التالية تخشى الشاعرة من البوح بالحلم. فالحلم عندها هو الأمل الذي تنشده. والأماني التي تتمناها كي تحيا بسعادة وأمان. إ لا أن أنانية الرجل تكتم أنفاسها، لتبدد الحلم وتبعثر الأماني. وإن تسلطه وعدم نضوج العلاقة بين الرجل والمرأة جعلها تستعمل كلمة حلم لما هو حقيقة تود طرحها فكلمة حلم هنا جاءت نوع من التورية وراء حاجة النفس البشرية. ورغم استعمالها لكلمة حلم. أيضاً فقد خافت من فرط الأنانية وقوة السلطة. لنبق معها في عرض شيق:

حلمت ليلة أمس

بأنني أصبحت سنبلة
في براري صدرك
خفت أن أقص عليك الحلم
فتحولني إلى رغيف ساخن
وتأكلني
حلمت ليلة أمس
بأنني أصبحت سمكة
تسبح في مياه عينيك الصافيتين
خفتُ أن أقص عليك الحلم
حتى لا تُغلِقَ أهداب عينيك عليّ
وتخنقني حلمت ليلة أمس
بأنني قصيدة سرية
مخبوءة في أحد جواريرك
خفت أن أقصّ عليك الحلم
حتى لا تعطيها إلى أحد الناشرين
فتفضحني...
حلمت ليلة أمس
بأنك اشتريت لي يختاً خرافياً
يتنقل بي من شفتك العليا
إلى شفتك السفلى
ومن ذراعك اليمنى
إلى ذراعك اليسرى
خفت أن أقص عليك الحلم

حتى لا تبيع يخت أحلامي

وتبيعني...

حلمت ليلة أمس

بأنني مستلقية تحت أشجار حنانك

وإنك تسقيني حليب العصافير

وتطعمني فاكهة القمر

خفت أن أقص عليك ما رأيت

حتى لا تضحك من تخيلاتي

وتكسر صندوق أحلامي...

صور ناضجة وواقعية لبعض ما كانت تعانيه المرأة في الوطن العربي ولم تزل. فقد أجادت الشاعرة الإنسانة بوصف كل حالة سلبية وما يقابلها من إيجابية باذلة كل جهد في سبيل إزالة الغشاوة التي تغمر نفس الرجل الشرقي وتجعله لا يرى في الأنثى إلا أداة طيّعة ملكَ يديه. وأي تبديل في حياة المرأة على الصعيد الشخصي هو جناية وخروج عن المألوف ويستحق العقاب.

ونظراً لأن الشاعرة سعاد الصباح صاحبة نزعة إنسانية وموهبة فذة ذات أبعاد وأعماق متميزة. فنراها تجسد لنا القيم والرموز كي تمنح لحياتنا معنى ومَغزى تستطيع من خلالها تلمس طريق الصواب وتجاوز عصر الانحطاط. ونراها تستميت بشعرها دفاعاً عن الحرية التي هي تاج الانسانية. وعن الحب الذي لم يُعتبر حباً إن لم يحمل بين جنباته معنى الحرية والديمقراطية. ويجب أن يحمل معاملة الند للند. أي أن يتساوى فيه الطرفان الرجل والمرأة وأن يكملا بعضهما البعض.

كانت تطفو بإسلوب شعري ودرامي في بعض قصائدها ولـــم يكن تمردها منصباً عل الشكل القديم للقصيدة، بل هي صيحة درامية لاسترداد عزة النفس والكرامة، والإباء، وحق التساوي في الحيـــاة بين المرأة والرجل. ومن هنا جاء اصرار سعاد الصباح على إبـواز وتجسيد الجوهر الحقيقي للمرأة. والخصائص النبيلة، فالمرأة عاقلـة، جبارة، رقيقة، نشيطة، حكيمة، عاتية كلها رموز ودلالات استعملتها الشاعرة من واقع الحياة ومن قلب الحقيقة وبهذا يســـهل اســتيعابها وفهمها والانفعال بها والتفاعل معها على صعيد الرجال والنساء..

الحب في حدس الشاعرة

من أقوال الشاعرة في لحظة ميلادالقصيدة (في تلك اللحظة القدسية الخالدة تسقط عليّ حروف وكلمات أدونها على الورق في موكب مهيب من الموسيقى الشعرية تماماً كما يتساقط المطر، وأشعر بالدهشة حينما أمعن النظر في ما دونته على الورق وأتساءل من أين جاءت هذه الصياغة التي تجمع بين أردانها حلاوة التعبير وجمال التصوير وروعة الموسيقى؟. أرأيت كيف تعمل النار في الحطب فتحوله إلى جمر فرماد؟. هكذا يولد التوهج في كينونة الشاعر وتبدأ عملية التحويل تتدرج من حال إلى حال وما أن تأتي حالة الرماد حتى يكون الشاعر قد رفع عينيه ويديه عن الورق ونفس الصعداء لأن القصيدة اكتملت تكويناً.)

هكذا وصفت الشاعرة حالة خلق القصيدة في نفسها. طبعاً هذا الخلق لا ينطبق على كل الشعراء فهناك من الشعراء من يرصفون الكلمات رصفاً عمودياً موزوناً. إلا إنه لا يُثير في نفس القارئ أي شعور عاطفي أو إحساس إنساني، وذلك لخلوه من صدق الإحساس والالتصاق بالواقع وعمق المضمون. لذا فإن أمثال هؤلاء الشعراء لا يكبرون، ولن يصلوا لمستوى الخلود أو الانتشار، ويبقون طي النسيان والفشل.

أما شاعرتنا فإن إبداعها يتحقق من تلبيتها لثورة بركان يجيش في اللاشعور إزاء إحساس ما يداعب خيالها، فتخرج القصيدة مليئة بالحرارة. ساخنة العواطف متينة الحبكة، رائعة الصورة، مغمسة بمداد قلب مفعم بالصدق، والإنسانية بعيدة عن الأنا الذاتي، أو الوصولي.

وأكثر ما نلمس حرارة قصائدها تلك التي انسكبت من فيض شوق، ووجوه محبة وتفان، فالحب عند سعاد الصباح حب للجمال، للإنسان، للطبيعة، للإله، للطفولة للحبيب، كل هذه المصادر مبعث حب نقي صادق خال من المصلحة الذاتية وإذا أبحرنا مع الشاعرة في بعض قصائد الحب التي توجت بها دواوينها، نرى عاطفتها كالبحر تتدفق تارة ثائرة قوية تلطم فيها مكامن الحب عند الحبيب علّها توقظها وتحرك نبضها، وتارة هادئة عميقة ملتهبة عارمة بالوفاء والإخلاص، وأخرى نراها حزينة معاتبة بشفافية ضباب الفجر، ندية كندى الربيع فتزيد من روعة الضباب ومن سحر الندى، وتحلق بالمرء إلى عالم السماء، فيخرج معها القارئ خارج حدود الزمان والمكان إلى مبعث الإلهام حيث انعدمت المادة وقذارة الوجود الذي فرغوه من كل جمال، ومن كل لحظة باسمة.

صورة تتدفق حرارة وتبعث إشعاع المحبة فتنير ظلمات القلوب ويتحول بها القلب المتحجر إلى كتلة حنان عندما يقرأ تلك الكلمات المعسولة أو يسمع بها فكيف إذا تأكد بأنها مكتوبة له وهو المقصود.. لنبق مع الشاعرة في أجمل شكوى:

جئت أشكوك حيرتي.. والتياعي.. وحسرتي
ليت قلبي على يدي... لتدري بحرقتي
وترى ماجن هواك على طيب زهرتي
ونرى خافقاً يذوب شهيد المحبة
وعيوناً همومها، دمعة إثر دمعةِ
وترى إن صبوتي فيك ترمي منيتي
أيها التائه الذي ليس يدري بغصّتي

أنا ظمآنة الفؤاد... ولقياك واحتي
أنا صوفية الحنين، ومغناك كعبتي
أنا إن مت في هواك، فذكراك جنتي

فهل هناك كلمات أكثر من تلك شوق، وحنين، وتفانٍ، وانصهار للذات البشرية في سبيل الحبيب. وهل استطاع الشعراء الصوفيون تجسيد المحبة أكثر من ذلك. ظمآنة الفؤاد، ليت قلبي على يدي، لُقياك واحتي، صوفية الحنين، مغناك كعبتي، إن مت في هواك فذكراك جنتي. حتى بعد الموت تسمو الشاعرة لخلود المحبة، المحبة التي هي مصدر وجود الإنسان على هذه الفانية. ويبرز إبداع الشاعرة باستعمالها الكلمات البسيطة، والتشبيه البليغ والرومانسية الحديثة، ويفتح طريقها لقلب القارئ ليبدأ بالبحث عن قصائد أخرى ليسمو بها ومعها. لنغوص معاً في يراع الشاعرة تلتقط المزيد من الدرر..

أي نهر في رُبى عينيك يجري؟.. أي كوثر؟.
أي نور فيهما يبدو لعيني؟.. فأبهر..
أي نار فيهما تجعل قلبي.. يتبخر؟..
أي كأس فيهما تنساب في روحي فأسكر؟.
أي سهم فيهما يجعل كُبري يتكسر؟
أي لون يتجلى فيهما؟.. الله أكبر..
أي فكر فيهما عَام على الفكر وحيّر؟.
كلما قاومته... القيت خطوي يتعثر
وإذا أزمعت هجرانك أدنو منك أكثر..
كيف آمنت بمن يعبث بالحب ويكفر؟.

ثم تتابع مناجاتها الروحية والصوفية، فتناجي القدر والسماء والليل والنهار والأفق وتحلق بخيال الإنسان إلى ما وراء الأفق فيسمو بذلك عن الأشياء المادية العادية إلى الخيال والأعماق التي لا تدرك بالحواس وتحرك النقمة الروحية القادرة على تصوير الحلم حقيقة والخيال يقيناً. لنتابع مع الشاعرة /لون عينيك:

آه من ليلي ومن ويلي، ومن هذا المقدَّرْ
يطلع البدر على الأنجم في الليل ويسهر
ويواليها بنور الشوق حتى تتبلور..
أي سحر يجذب البدر إليها حين تخطر
أثراها كحلت بالليل جفنيها لتسحر
أنا من كحلني السهر. وبدري ليس يشعر
ليتني في ليل بدري نجمة في الأفق تظهر
علّها تلقى شعاعاً بسناه تتنور
وترى الحلم يقيناً.. وترى العالم أخضر

في قصيدة أخرى تخاطب الشاعرة نفسها بيا أخت روحي ثم تبثها من فرط وجدها ومن لهيب عشقها من سكرة صحوتها ومن قذف حممها أجمل ما خط شاعر لحبيب وتصور لنا حب الإنسان عندما يسمو ليصبح نفحة من حب الله ويكرس معنى الصوفية متخذة لذلك شكل الشعر الحديث الملتزم بالوزن ,والقافية الواحدة هنا . ونجد خيال الشاعرة متحررا من البكاء والنحيب الذي عرفته الرومانسية سابقا فتقول:

ياأخت روحي عن هواه المفتدى لا تسأليني
هو حب ماله في أي قلب من قرين..

ما رواه الدهر في ماضي ولا آتي السنين
هو لحن شاعريُ الجرس، خفّاق الرنين
هو نور يسكب الفرحة في قلب الحزين
هو روض عاطر السوسن، زاهي الياسمين
هو بدر في دجى ليلي، وتاج في جبيني
فإذا غاب حبيبي، أي ظل يحتويني؟
من سيرسي دُرر التاج على هذا الجبين
من سيمحو لَهَب الحُرقة من دمعي السخين
من سيُهديني إلى المرفأ إن ضل سفيني

ثم تتابع مناجاة أخت الروح. لتقرن المحبة الصوفية بالوفـــاء الأبدي وكأنه امتداد إلى ما بعد الحياة. فليس الحبيب هو القصد الذي تسعى وراءه بل هو الحب بحد ذاته وبهذا تختلف عن موقف الإنسان العادي الذي يرى الحب للحياة. وبانتهاء اللحظات ينتـــهي الحـــب. فكيف بانتهاء الحياة؟.. فتقول:

أخت روحي عللّيني.. واصدقي لا تكذبيني
لا تقولي أطلق السجان أغلال السجين
إنني أهواه طول العمر قيداً في يميني
لا تقولي: سوف تنسين هواه بعد حين
ليس هذا القلب قلبي إن يكن غير أمين
ليس مني إن طغى شكي على نور يقيني
إن هذا الحب لي أقرب من حبل الوتين
وله فيض حناني.. وله فرط حنيني
وهو بعد الله ربي... وهو بعد الدين ديني..

لم تترك الشاعرة طريقة تتشكل بها الحروف إلا ولونت بـــها شكلاً جديداً من أشكال الحب لتقدمها لنا، وتعطينا منها مدلولاً إضافياً لمعاني التراكيب الشعرية واللوحات الفنية، وبذلك يبدو أن الذكريـلت تقرب الحبيب وتختصر المسافات فيصبح أكثر التحاماً في غيابه منه في حضوره.

كما نرى أن خيال الشاعرة قد وصل إلى الحد المطلـــق فـــي معطياته، ومعانيه، ورشاقته، وصدقه، وعفويته وبساطته ومن جهـــة أخرى فهو محدود بالقيمة الفكرية، الملتزمة بالمعنى وبالقصد الـــذي تريد الشاعرة إبرازه، خاصة في مخاطبة الرجل الحبيب، وفي كـــل قصيدة نرى شكلاً جديداً من حيث استغلال الحدث والإســـهاب بـــه. ويكمن وجه الإبداع عندما يشعر القارئ بأن المخاطبة لـــه أو منـــه على السواء. أي أن قصائد الشاعرة في الحب تأخذ المغزى الشمولي لا الخاص وكلما كان المعنى العام شمولياً تقربت بذلك مـــن قلـــوب عامة القُراء وليس النقاد أو المثقفين في الشعر والأدب فحسب.

تساؤلات نفسية للوصول إلى قلب الحبيب. ساعات طوال مـــن التفكير أي الأشياء أحب إليه؟. أي الألوان؟. لماذا؟. هل هناك مخافر بوليس أو سدود وأسوار؟.. نعم إنها السلفية التي تقوقع بها الرجـــل، فهي لا تريده لقاء حبيبين في جسدين، بل تريده لقاءً متوازناً متساوياً في الحب عند الطرفين.. في العاطفة.. والصدق.. تريد لقـــاء روح، وهيام، وأفكار، ورؤيا.. لذا تحاول بكل الأشكال غرس نفسها فـــي قلبه كما هو مغروس في قلبها.. تريده نداً لند.. وليس ســـيداً لعبـــد تريده أميراً لأميرة.. ورجلاً لإمرأة تملك كـــل المقـــدرات العقليـــة والنفسية والعاطفية كما يملك، وإن دورة الحياة لا تكتمل إلا بـــللرجل

والمرأة ويجب أن تكون العلاقة متكافئة متجانسة، متساوية في كـــل شيء... تقول:

عيدي غداً، وأميري ليس ينساه
ما أسعد العيد باللقيا وأحلاه..
هل تشرق الشمس إلا من مطالعه
أو يجْمُل العيد إلا عند مرآه..
وقفت في وجه مرآتي أسائلها
بأي ثوب غداة العيد ألقاه؟
وأي لون من الألوان يُسعِدُه
فكل لون له في الوجد معناه
وأي هيئة شَعْرٍ أستثير بها
كوامن الشوق تطغى في حناياه
أ أترك الشعر منثوراً على كتفي
سنابلاً في مهب الريح تغشاه
أم هل أسوي شريطاً في جدائله
يلوّن الليل في شَعري ويرعاه؟.
وَأي قرط على أذني يؤثره
وأي عطر على خدي يهواه
وهل أكحل عيني... أم ترى سهري.
قد أودع الكحل في عيني وخلاه
لا تكتمي الحق يا امرأة، واعترفي..
بأي شوقٍ ستلقاني ذراعاه؟.
وأي دفء يثير النار في شفتي؟.

وأي نـار إذا مـا قبـلتْ فـاهُ؟.

وكم حكاية حب في جوانحنا.

ثروى إذا عانـقت كفيّ كفاه

لا ترمقيني بـإنكار وسخريةٍ

فثروة الحب أغلى ما ادخرناه

وشعلة الحب كنز في ضمائرنا

ولا يـقاس بها مال ومـلا جـاه

لا تسأليني عن ثرائي في محبته

لا تسألي عن مـداه يعلم الله...

في قصيدة أخرى أطلقت عليها "الذكريات" نجد درســـاً مـــن دروس الحب، ونبراساً للوفاء لكل عاشق. وشعلة للكبرياء، وبوحـــاً ملائكي الأرجاء، تداعياً للذكريات فيها حلاوة حرارة اللقاء.. ومرارة الفراق. وقد جنح خيال وألفاظ الشاعرة إلـــى اســتعمال الأســلوب الصوفي لتحقيق شيء من الكمال الروحي. وصب كل ما لديها مـــن مشاعر في بحر شخص واحد حتى ولو كان شخصية اعتبارية، ففي حبها هذا الذي تعرضه من خلال الذكريات حب اسطوري، طـــاهر، نقي، ملتهب، روحي، عاقل متعقل، فيه كل معاني وتراكيب الشعراء الصوفيين من مناجاة القدرة والكواكب.. لنبق مع ذكريات الشـــاعرة بكل ما فيها من حرارة، وشوق، وعتاب رقيق:

حبيبي أتسترجع الذكريات؟..

إذا ما خلوت لصمت السماء..

فتذكر كيف سمعنا الليالي تزغرد في فرحةٍ باللقاء..

وكيف رأينا ضياء الكواكب أوتار قيثارةٍ للغناء

وماذا نسينا؟. نسينا الزمان، نسينا المكان.. نسينا الرياء...

نسينا الحساب، نسينا العتاب، نسينا العذاب، نسينا الشقاء..

وماذا ذكرنا؟ ذكرنا الوعود، ذكرنا العهود، ذكرنا الهناء..

ذكرنا الغرام، ذكرنا الهيام، ذكرنا السلام.. ذكرنا الوفاء.

وقد نصب البدر أرجوحة من النور ترفعنا للسماء..
وعيناك للحب نافذتان.. أرى الطهر خلفهما والصفاء
وكفاك تحتويان جدائل شعري.. وتخشى عليها الهواء.
وصدرك يغدو وساداً لصدري.. كأنك تحمل عني العناء
حبيبي، وحبك أسطورة، تكلل قلبيَ بالكبرياء
فما هو لهو،.. ولا نزوة ترابية.. تنتهي بارتواء
ولكنه نشوة كالصلاة، واشراقة حلوة كالضياء
كأنك في زمني رحمة... كأنك من عندِ ربي عطاء
حبيبي.. تولت ليالي الربيع.. ومر الخريف وجاء الشتاء

أتذكرني رغم قصف الرياح،.. وعصف النوى بزمان اللقاء

أتسمع في الليل همسي إليك.. وتلمح في ناظريَّ البكاء؟

أتعرف أني وقد غبتَ عنيّ.. أعيش بلا أمل أو رجاء؟

وتشهد روحي مصلوبة.. وذاتي مهيأة للفناء؟.

فللحب عشت، وللحب مت، وللحب هان عليّ الفداء..

في تلك القصيدة القصيرة نسبياً نرى شبه قاموس لمفردات وتراكيب شعرية غزلية شكلتها الشاعرة رافداً زاخراً – بالعمق، والبلاغة، والإبداع – للغةِ العربية لتؤكد لنا إن اللغة العربية هي محيط وليست فقط بحراً للمعاني الجميلة. لتقرأ (صمت السماء، زغردة الليالي، ضياء الكواكب، أوتار قيثارة، أرجوحة البدر، نزوة ترابية، عصف النوى، تشهد روحي مصلوبة.. ذاتي مهيأة للفناء، نشوة كالصلاة، عيناك للحب نافذتان. حبك اسطورة# جميعها مفردات دلالية على عمق الإيمان والصدق والمحبة ومنتهى الصوفية.

في قصيدة اللقاء تتالى الأحداث فمن الذكريات التي بثتها كل الشوق والحنين أتى يوم اللقاء فأبدعت الشاعرة في استعمال مفردات الطبيعة التي حولها ووصلت إلى الفضاء. كم هائل ونبع غزير لا ينضب مما تمدنا به الطبيعة. والشاعرة تُجيد انتقاء واستخدام الكلمة وتُبدع في التشبيه والكناية والإستعارة.

فها نحن نرى مشهداً للقاء تشكر فيه القدر والله عز وجل على تلك الليلة، فنقف أمام نفحة من التوحيد الصوفي الذي تنهجر بقدسية هذه الليلة، فتبعث الأمل وتشرق الأنوار في كل شيء في الطير.. في الزهر. في الماء، في الليل، في الشعر فتهشم اليأس والقنوط في النفس البشرية، وتبعث الدفء والإيمان، لتعبق معها في حرارة اللقاء وبهجة السعادة. وتبدل نظرتها ونظرتنا للأشياء.

الله ما أجمل ليل اللقاء

ربي... أمن أجلي هذا المساء؟.
رصعّت الأنجم شعَرَ السماء؟
وشاع في الجو رقيق الضياء
واكتست الدنيا بأبهى رُواء..
وارتحل اليأس، وحل الرجاء
وغرّد الطير ينشد الصفاء..
وعانق الزهر ندي الهواء..
وانطلق الشعر بأحلى غناء..
ومرّ طيفانا على شط ماء.
فانعكست صورتنا في انتشاء
وزغرد الضفدع مك الجواء
وردد البلبل حلو الدُعاء..
آواه من سُكرين... رهن الدماء
من نشوة اللقيا... وخمرِ الحياء
الله... ما أجمل هذا المساء
وسيدي يغمرني بالعطاء..
يُسلم شعري لجنون الهواء
يغمر ثغري... بألذ ارتواء
ويحتوي صدري.. وأي احتواء
كأنني زنبقة في إناء
يردد اسمي بأرق النداء..
فيشعل القلب بألف اشتهاء
كأن قلبي من لهيب اللقاء

حيث بلادي.. حُرقة وإصطلاء
كأني في جنتي خط استواء
وأنتشي من سكرتي في إباء
وأنثني من فرحتي في بُكاء
أكسو ربيعي بالمنى والدعاء
خوفاً عليه من ثلوج الشتاء..

بعد تلك الليلة العارمة بالصفاء والسعادة وتبديد اليأس والخوف لم نلبث أن رأينا الخوف يعود فور انقضاء الليلة لماذا؟ لأن بـــذور الخوف واليأس والقنوط والحيرة، والحزن، والألم كلها تشكل تكويـن الإنسان خاصة المرأة في دولنا دول العالم الثالث. حتى عندما يشرق يوم تشرق فيه شمس السعادة تحمل بين ذراتها تلك البـــذور التـــي سرعان ما تنمو. وها هي الشاعرة تضع يدها على الجرح في تلـــك الليلة (أنثني من فرحتي في بكاء، أكسو ربيعي بالمنى والدعاء، لماذا خوفاً عليه من ثلوج الشتاء).

لنبق مع قصائد الحب والتي يعجز قلمي عن إهمال أي قصيدة منها أو شطر. ففي كل قصيدة هنا نوع جديد من أشكال الحب الـذي عرفناه عند الشاعرة فالحب لا يزال يتدفـق بحرارتـه، وبركانـه، وانفعالاته، إلا أنه يحمل بين تلك الانفعالات الرقيقة الوجـه الآخـر للمرأة الكويتية وجه التمرد والثورة والانبثاق من قوقعـــة الركـود والاستكانة.

لازالوا في هذه القصيدة تخاطب رجلاً إلا أنها مـــن خلالـه تخاطب كل الرجال الذين لا يزالون يـــأتزرون بالتسـلط والقسـوة والسلفية، وتوجه تحذيراً من انتهاج فريق غير سوي في الحب فهي.

كما كانت تتفجر أنوثة رقيقة وصفاء، ووفاء، وعطاء، فيما لو كـــان الرجل يعرف كيف يعاملها. اليوم ترفض الشاعرة أن تكون شـــاة... إنها أعصار هائج ونار محرقة للدفاع عن كرامتها.. تحذير مـــن أن يكون الحب أرجوحة في يد الحبيب، لن أطيـــل الشـــرح فكلماتـــها وتعابيرها وشاح وضاء كست به مُرادها. تقول:

يـا صـديـقي..

في الكويتيات شيء من طباع البحر، فادرس

قبل أن تدخل في البحر.. طباعي

يـا صـديـقي

لا يغرّنّك هدوئي...

فلقد يولد الإعصار من تحت قناعي

إنني مثل البحيرات صفاء.

وأنا النار.. بعصفي

واندلاعي

تنذر في المقطع الأول. وتُحذر من شدة قسوتها وعنف ردهـــا في المقطع الثاني تشير إلى مكمن الخير في نفسها الرقيقة، المؤمنـة، المعطاء، الإنسانة، القنوعة، الأصيلة التي تتفانى في الحب والوفاء.. لكنها تؤكد مقولة: (إن كل إنسان يحوي بداخله نقيضين الخير والشر لنفس الدرجة) لكن تعامل الطرف الآخر هو الذي يحرك أحدهمـــا. سواء كان الطرف الآخر رجلاً أم إمرأة. ومن كـــان حكيمـــاً يقـــود تصرفاته العقل فإن بذور الخير تهيمن على حياته. ورغم ذاك يقـول المثل (احذر العاقل إذا أهنته) لنبق مع القصيدة:

يـا صـديـقي

إن عصر النفط ما لوثني
لا ولا زعزع بالله اقتناعي
أنت لو فتشت في أعماق روحي
لوجدت اللؤلؤ الأسود
مزروعاً بقاعي
يا صديقي
يا الذي أعشقه حتى نخامي
كل ما حولي
فقاعات من الصابون والقش
فكن أنت شراعي

ثم تتابع التوسل إلى الحبيب كي يفهمها، يفهم كنهها الملـــيء بالخير، وفي هذه القصيدة نراها تتكلم بلسان بنات وطنها الصغـــير الكويتيات. تخاطب الحبيب بأنها تهواه بلا عقل، والعقل هنـــا هـــو الـــذي يعتبـــره المجتمـــع /التسلط، والتحجر، والقسوة، والصلابـــة، أي كل السلفية التي عاشها وورثها الرجـــل مـــن التفـــرد بـــالرأي، والسيطرة على الحكم، والفوقية في كل شيء على المرأة. فـــالمجتمع رجل /وفقط/ فالكويتية تريده بلا ذاك العقل.. تريـــده بعقـــل اليـــوم واعياً، مثقفاً، مُتحضر الأفعال والأقوال ينظر إلـــى المـــرأة نظـــرة الشريك المساهم لا التابع المتطفل، لوحة فاتنة لإبراز هذا التنـــاقض الذي تود محاربته كل امرأة كويتية أم غـــير كويتيـــة. لنعـــد إلـــى القصيدة:

يا صديقي..

الكويتية لو تفهمها
نهر من الحب الكبير
والكويتية إعصار من الكحل
حماك الله من أمطار كحلي.. وعطوري.
والكويتية تهواك بلا عقل..
فهل تعرف شيئاً عن شعوري؟
فأنا في غضبي عود ثقاب
وأنا في طربي غزل الحرير..
يا صديقي
الكوَيتية تبقى دائماً صامتة..
فمتى تقرأ ما بين السطور
فتمدد تحت أشجار حناتي
وتعطر ببخوري
فعلى أرضك ألقيت بزوري
وعلى صدرك
تمتد جذوري
يا صديقي

مناجاة في قمة السمو، بداية الانطلاق.. لقد ملت المرأة الكويتية السجن، والقيود ملت وكرهت القسوة والجفاء فانفجرت من ركام السنين والحجْر والتزمّت كرهت جفاف حياتها وخلوها من الإنسانية. وانتفضت كالمارد تريد الحياة المورقة الندية بالحب والانسانية تريد الحرية التي تُخرِجُها من بوتقة عصر الانحطاط. الحرية التي تجعلها تتنفس الهواء العليل وليس المخنوق العفن، وكل

ما تريده هو في قبضة الرجل:

يا صديقي

الكويتية أرخت شعرها الليلي كالجسر

فلا تعبأ بحراسي

وجندي

وسنوري

والكويتية ملت من غبار (الطوز)

واشتاقت إلى ظل البساتين

وإيقاع النوافير

وأصوات الطيور

يا صديقي

أنا ألف امرأة في امرأة..

وأنا الأمطار

والبرق

وموسيقى الينابيع

ونعناع البراري

وأنا النخلة في وحدتها

وأنا دمع الربابات

وأحزان الصحاري

يا صديقي

يا الذي يخرج من منديله ضوء النهار

يا الذي أتبعه حتى انتحاري

كم تمنيت بأن تصبح في يوم من الأيام

قرطي.. أو سواري

يـا صـديقي

إنني اخترتك من بين الملايين

فهنئني على حُسن اختياري..

وهكذا نرى في المقاطع الثلاث من هذه القصيدة أن المرأة نهر متدفق من الخير والصفاء، والحب، وإن المرأة هي النصف الآخـــر من الرجل. فهي ينبوع الخير واستمرار الحياة إلا أنها تعاني الوحـدة والحزن والقهر.. وبعد أن بدأت تلملم أطراف قوتها لتنطلق أخـــذت تحذر من جرح كرامتها، ومن التبعية العمياء للرجل فالتمرد علـــى الواقع الأليم هو بداية طريق الحرية، والحرية دائماً صعبة المنـــال تحتاج إلى مغامرة مدروسة بذكاء محكمة التوجيه والإنفعـــال. وإن أسلوب الشاعر هو خير دليل لحكمة الأسلوب وضبط الانفعال وذكاء التوجيه فتبدأ بالتحذير، ثم عرض ونشر كـــل الصفـــات الإيجابيـــة الغامضة والتي غيبها المجتمع في المـــرأة. ثـــم الإنـــذار بطريقـــة الإيضاح إلا أنه إنذار لا يحمل بين طياته أي نـــوع مـــن التجريـــح والاستفزاز، أو الإهانة أو العنف وبهذا يكون أكثر جـــدوى وأقـــل ضغينة من الرجل. فمثلاً تقول في نهاية القصيدة: (يا صديقي إننـــي اخترتك من بين الملايين، فهنئني على حسن اختياري) هنا تبعث فيه روح الحضارة أي أنه الأمثل من بين الملايين وعندها سيعمل جاهداً ليكون فعلاً الأمثل وتتحرك في داخله العواطف السامية ربمـــا كـــي يجعلها تشعر بالسعادة لحسن اختيارها.. واني أرى هذه القصيدة هي من واقع علم النفس والطب النفسي وكأني بالشاعرة الفـــذة طبيـــب نفسي يعالج مريضاً خلال فترة زمنية طويلة نوعاً ما..

ثم تتغلغل الشاعرة ضمن النفس البشرية من خلال معالم الطبيعة الجغرافية. وتربط بينها وبين الحواس الخمس والحركة اليومية للحياة فتنقل الإحساس إلى مناطق الانفعال عند القارئ وبذلك تؤكد نظرية العدوى والتي تعني (إن المتلقي للقصيدة يمر بكل مراحل التجربة التي مر بها الشاعر أثناء إبداعه للعمل. وكلما كان الشاعر أكثر إحساساً وصدقاً والتصاقاً بالواقع، وواضحاً في نقل الصورة، زاد في إيصال الأثر الانفعالي إلى القارئ فيبدو امتزاج انفعالاته أقوى وأشد وأكثر حرارة وتعاطفاً وميولاً مع الشاعر).

وهذا ما أكدته لنا الشاعرة في وصف ملامح الحبيب عن طريق استخدامها للمعالم الجغرافية وهي بهذا رمزت لعمق المعنى، ومضمونه، وشكله ولونه. وإيقاع العلاقة به. ما الحياة بكل معانيها وصورها غير وحدة متكاملة ولو انتقلت هذه الوحدة من مكان لآخر ومن زمان لآخر فهي لا تنفي الوجود والحياة كله.. فإن الرموز التي استعملتها الشاعرة مثل الخريطة، القارات، البحار، جغرافية المكان، ألوان البحار، توالي الليل والنهار الشرايين، سمك القرش كلها تنبع من الطبيعة وتصب بها وبين النبع والمصب تكتمل دورة ووحدة الحياة التي تبرز تباين الضدين. بل إن الرمز لا يُعرف إلا بضده. القارات والبحار، الليل والنهار نقاط الضعف والقوة.. لنبق مع قصيدة (العالم أنت):

خذ الخريطة

رتبها كما تشاء

فالقارات أنت

والبحار أنت

وأنا أنت
من اسمك تبدأ جغرافية المكان
ومن عينيك تأخذ البحار ألوانها
ومن ثغرك يولد الليل والنهار
ومن إيقاعات صوتك
ومن شرايين يديك
أولد أنا..
يطاردني حبك
كسمكة قرش لا تشبع
يطاردني فوق الماء، وتحت الماء
يختار نقاط الضعف في أنوثتي
ويعتريني بلا هوادة.
حتى يصبغ دمي
جميع المحيطات باللون الأحمر.

لم تستطع الشاعرة أن تحجب عن القارئ واقع المعاناة. ففي قصيدة اللقاء الحارة في بدايتها ختمتها بالخوف من الآتي. وهنا تفرش لنا بساط السعادة لدنيا الرجل الواسعة الشاملة، الخلاّقة، لكل شيء في حياتها والتي يجب أن تغمر المرأة بوارف النعيم ورحابة الكون. إلا أنها سرعان ما تفقد الحقائق على لسان قلمها لتصور لنا مجريات الأحداث بعد احتوائها. وما تناله من التعذيب والإرهاب التي تجسدت في الضربات بلا هوادة. حتى صبغ دمها المحيطات.

مع صورة أخرى لاحتلال الحبيب قلب وكيان المُحب. إنه الانتماء إلى الحب الحقيقي الذي يمنح الحياة كل دلائل البهجة

والسعادة، وبدونه تصبح الحياة كابوساً ثقيلاً. فالإقامة الدائمة للحبيب هي إقامة روحية ونفسية وفكرية وعقلية، وبـــها تحـــارب الحبيبـــة العشيرة، والخوف، والحكام، والزمان إن وقف أحدهم حائلاً بينـــــها وبين الحبيب. إن لكل إنسان وجوداً ذاتياً لا يتحقق إلا إذا توفرت لـــه شروط موضوعية وهي وجود الآخرين معه. وإن وجوده لم يرتبـــط بجسده فقط بل هو الفكرة التي تكونت في أذهان الآخرين عنه وهـــذا يختلف من شخص لآخر ومن حبيب لآخر.

إذن إن الوجود الفعلي للإنسان هو ما تركه من أثر في نفـوس الآخرين وهذه العلاقة قائمة على التكامل الروحي والعقلي والفكـــوي والنفسي بين الجنسين وهذا ما نراه في الإقامة الدائمة:

وهبتك مفاتيح مدينتي
وعينتك حاكماً عليها
وطردت جميع المستشارين
ونزعت من معصمي أساور الخوف
وإرهاب العشيرة
لبست ثوبـي المشغول بخيـوط اللهفة
وتكحلت بنور عينيك
وزرعت في شعري زهرة برتقال
كنتَ أهديتها إليّ...
وجلست على العرش أنتظر
وأطلب الإقامـة الدائمة
في مدينة صدرك
يمر عطرك في مخيلتي

كسيف من المعدن
يخترق الجدران.. والستائر.
يخترقني
يبعثر أجزاء الزمن
يبعثرني
وتتركني أمشي حافية على زجاج المرايا
وترحل.....

في فترة أخرى من الهيام والتأجج العاطفي وفي جو من الرومانسية الخلابة تحلق بنا الشاعرة إلى عالم خارج حدود الزمان والمكان حيث ترتفع وتسمو مع الروح السامية بعيدة عن الأشياء المادية المحسوسة الملموسة فيذوب الإحساس الصادق ويمتزج بالعاطفة الولهى. فتخرج لنا الكلمات ألحان ولهى تُسكِرُنا حرارة الوجد، وينعشنا عبير الوداد والحنان والطهارة المنبثق من أرجائها. في قصيدة:

حين أكون بحالة عشق
أشعر إنني صرت بوزن الريشة
أنني أمشي فوق الغيم
وأسرق ضوء الشمس
وأصطاد الأقمار
حين أكون بحالة عشق
أشعر العالم أضحى وطني
وبإمكاني أن أجتاز البحر
وأعبر آلاف الأنهار

وبإمكاني

أن أتنقل دون جواز

فالكلمات... فالأفكار

حين تكون حبيبي

يذهب خوفي

يذهب ضعفي

أشعر أنني بين نساء الأرض الأقوى

المقطع الأول هو تحذير للمرأة للتسلح بسلاح الوعي واليقظة والتعقل خوفاً من أن يجرفها تيار الحب من الحرية إلى السجن ويحول إرادتها إلى استسلام وخنوع وعزيمتها وكبرياءها إلى إذلال وانعدام فتصبح ريشة في مهب الرياح فيما إذا أصيب الرجل بالأنانية.. فعوضاً عن أن تكون به قوية متينة تتحول إلى أسيرة.. في المقطع الثاني تبدأ الشاعرة من انطلاق المرأة وبداية تحررها وتجوالها بين دول العالم فتستعمل أسماء الأماكن والأشياء المحيطة بها وتفاصيل الحياة اليومية لتضفي على شعرها دم وحرارة التجديد الدائم والحركة المستمرة من حال لآخر. لا تَوَقف ولا ملل ولا اختناق للحظات فارغة.. ولا مشهد مختصراً. بل انها ينبوع يتدفق في كل اللحظات والأيام والفصول بل ويزداد توهجه حسبما تجذبه المشاعر الجياشة.. وهنا تتحرر من قيود البلد والعشيرة والحكام إلا أنها تعلم أن هذا التحرر مرهون بوجودها خارج نطاق سجنها المؤبد. فتختم القصيدة بكلمة أهذي.. أهذي.. أي أنها تقول ما قالته دون وعي مستمر انه آني..

أهتف باسمك

في باريس
وفي لوزان
وفي ميلانو
أدخل كل مقاهي العالم
مقهى.. مقهى..
أخبر عمال الطرقات
وأخبر ركاب الباصات
وأخبر أزهار الشرفات
وحتى قطط الشارع
إنني أهذي.. إنني أهذي...

يعود الخوف الدائم ليسيطر على النفس والقلب، وتعود صرخة الهلع تدوي في سماء المرأة من المستقبل يغلفها القلق الدائم على حبها ومكاسب حريتها فتخاف أن تهدم العادات جدار الحب الذي بنته فيحترق الأمل وتتلاشى الأماني وتذوب الأحلام، وتعود للصحراء ثانية صحراء النفس والكيان، فتقول بـ (ازرعني بين الكلمات):

أخشى جداً
أن يتحول هذا الحب إلى عادات
أخشى جداً.
أن يحترق الحلم، وتنفجر اللحظات
أخشى جداً.
أن ينتهي الشعر، وتختنق الرغبات..
أخشى جداً
أن لا يبقى مطر

أن لا تبقى أشجار الغابات
ولذا... أرجو أن تزرعني
ما بين الكلمات...

في قصيدة (إلى واحد لا يسمى) نموذج فريد للجرأة الموضوعية تخاطب الحبيب أي حبيب فكل رجل يمكن أن يكون حبيباً ترسم لنفسها ملامح ذاك الحبيب ومقوماته فتبرز قوة شخصيته متحدية بذلك المجتمع والعادات والحكام والقبائل. وتتخطى كل الحدود التي قد تقف حائلاً بينها وبين الحبيب وترفض بعنف عصر الحريم الذي كان يعتبر الحب جريمة نكراء وقضية فيها وصمة عار.. لذا ترفض طريقة الحب بالخفاء ومن وراء الحجب وتنادي بها على ملأ غير آبهة بما سيحل بها ويصيبها من ذاك الإعلان، كذاهب إلى المعركة، تحمل دمها على كفها.. وتعلن رغم كل الحواجز التي توردها لنا:

أسميك..
رغم اقتناعي بأنك لست تسمى
حبيبي
وأعرف إن اللغات تضيق عليّ
وإن قميصي يضيق عليّ
وإن سريري يضيق عليّ
وإن جميع المعاجم من دون جدوى
وإن حروفي مضرجة باللهب
أسميك..
رغم احتجاج قريش

حبيبي
ورغم احتجاج كُليب
وأعرف إن حدودك ليس تُحَد
وأن رموزك ليس تُحل
وإن قراءة عينيك
مثل قراءة علم الغيوب
اسميك
حتى أغيظ النساء
وحتى أغيظ عقول الصفيح
وأعرف إن القبيلة تطلب رأسي
وإن الذكور سيفتخرون بذبحي
وإن النساء
سيرقصن تحت صليبي..

رائدة على مذبح العادات، تقدم نفسها فداءً لكل أخطاء الجيل نساءً ورجالاً وكأنها كبش الفداء لهدم جدار السلفية المتزمتة، والعقول المتحجرة، مواجهة عنيفة، سباحة ضد التيار المظلم الذي يسيطر على المجتمع. غير آبهة بالمشرحة والصلب أمام إصرارها على نشر نور الحضارة في النفوس والمطالبة بالعدالة الإنسانية بين الرجل والمرأة..

إنها خيوط الرومانسية التي تنطلق بالشاعرة لتجسد الحب في كفة والحياة في الكفة الأخرى.. إذن الحياة هنا هي الحب وبه تتوقف كل حركات الطبيعة فلا فصول ولا أيام ولا ساعات.. تنصهر كل الأشياء في ساعة لقاء الحبيب.. وتسكن كل تلك الملكات المطلة

الموجودة في الطبيعة أيضاً إلى الأبد في ساعة الفراق.. إن وجـــود الحبيب قمة الحياة والسعادة، و الدرك الأسفل وانعدام الحيـــاة فـــي الفراق.

لا يوجد توقيت شتوي لمشاعري
ولا توقيت صيفي لأشواقي
إن ساعات العالم كلها
تضرب في وقت واحد
عندما يحين موعدي معك
وتسكت في وقت واحد
عندما
تأخذ معطفك.. وتنصرف.

بوح من شغاف القلب الرقيق يتفجر أنوثة وحناناً. وقد تبـــدو هذه المشاعر متناقضة أحياناً مع نفسية الشاعرة من أجـــل التحـــرر والإنطلاق من سجن الحريم وقيـــد التبعيـــة. إلا أن هـــذا التحـــرر والإنطلاق لا يعني خنقاً وتدميراً لقوانين الطبيعة التي خلقـــت مـــع الإنسان فالأنوثة وعذوبتها وتدفق عاطفتها هي إحدى قوانين الطبيعة. وليست الطبيعة لفرض الضعف والذل والعبودية على المرأة. إنـــها تفرض حاجة الرجل والمرأة لبعضهما البعض بنفس الدرجة وبنفـــس الحرية والأسلوب، والحاجة المتبادلة هي فـــي حـــد ذاتـــها ســـيادة الطبيعة. وعندما تسود قوانين الطبيعة في الحاجة المتبادلـــة بوعـــي الرجل وتفهمه، لا خوف على المرأة وكرامتها في أن تهان لو سلمت كل مشاعرها وأشواقها وحنانها لرجل يفهمها ويعي سيادة القوانيـــن. وليس سيادة الذكور، تلك السيادة الأخرى التي تناولنا بعضـــاً منـــها

ووردت في قصائد الشاعرة في عراكها مع الرجل بشكل خاص ومع المجتمع بشكل عام. الرجل المتسلط الأناني الذي يأبى أن يذكر حتى في كلامه افضال امرأة، ويرفض أن يُخرجها من قوقعة خاصة في زاوية عقله المظلم. فكنا معها حين تحولت إلى مارد وإعصار ونار وبركان من أجل حريتها واستقلالها عن الرجل.. وإيجاد كيان خاص بها وبذاتها الجسدية والنفسية.

فالحب هو قدرة خلاقة على التفوق والعطاء. ومن خلال الفكر الإبداعي الرومانسي تكشف لنا الشاعرة عن هوية وقدرة الحب بالربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالحب خُلِقَ مع خلق الإنسان وسيبقى معه حتى النهاية وبالحب وحده يحقق الإنسان كل معاني التفوق والنجاح والسعادة. فيبدع ويبتكر، ويسمو، ويُخلد، كما خلدته الشاعرة في (المتفوقة):

كنت أدري – قبل أن أولد... أني سأحبك
بعد أن جئت إلى العالم... ما زلت أحبك...
إن من أعظم أعمالي التي حققتها كامرأة...
إنني أحبك....

لنتابع مع الشاعرة أجمل معاني الحب وأحر لحظاته وكوامن خلقه. فالحب قدرة كامنة في نفوس البشرية وفي حركة الطبيعة والكون... قدرة نشعر بها لكننا لا ندري سرها وكنهها. فهي حَدّ الفصل بين الخير والشر، بين السعادة والشقاء، تحيل حياتنا إلى جنة وسعادة وحيوية وعطاء إذا أحسنا استخدامها. وبالعكس تحيلها إلى جحيم وتدمير وحزن وظلمة وشقاء إن لم ندرك مفهومها وحقيقة

فعلها. فالحب هو ومضة تمر في لحظة تشرق فيها الحياة في الكون كله، تصوره لنا الشاعرة في قصيدة – كهرباء – لتختصر العالم، والزمن، والعطاء:

في عز الصيف
تصطدم أنوثتي
بقطرة عرق صغيرة
تكرج على صدرك
وأنت قادم من جهة البحر
فيتكهرب العالم..
وتهطل الأمطار..

بتلك الكلمات الرقيقة القليلة تختصر لنا الشاعرة. قيمة الحب وفعله.. وتختصر دوران الزمن، وقواميس الطبيعة، وصفحاتها العارمة، إذن إن للحب لغة الاختزال والتعميم فقد استعملت الشاعرة. مفردات الطبيعة: الصيف، البحر، العالم،.. الأمطار.. ونسجتها مع الأنوثة، وقطرات العَرَق البشري، وصدر الحبيب. فتحولت كلماتها إلى نغمة موسيقية شجيّة عذبة. أوتارها مفردات الطبيعة وألحانها مفردات الإنسان..

كل الرومانسيين يهدفون دائماً إلى الكمال ففي صهر الروح والجسد غاية الكمال الرومانسي، وفي قصيدة (رائحة) نرى قمة الكمال والانصهار الرومانسي: ففي الوداع، والإفتراق تصل الحياة إلى النهاية في الرومانسية. أي لا يمكن الفصل بين الروح والجسد. وإن كان هذا الفصل آنياً ومؤقتاً وقد يكون من دواعي إضرام الشوق والحنين. إلا أنهم يرفضون الجزء من الكل.. وفي قصيدة الشاعرة،

يحترق الجسد بصورة رائعة فاتنة لتفي بغرض الفكرة الرومانسية الساحرة الجميلة فتقول:

عندما أودعك في المطار

ويغيب وجهك في المجهول

تنتشر رائحة حنيني إليك

ويشم الناس في قاعة المسافرين

رائحة غريبة

رائحة امرأة تحترق...

إن الإبداع في تصوير ذاك اللهب العاطفي الحارق عند الفراق، هو في جوهره نتيجة للتوحد الكامل بين الاثنين أثناء التواجد المشترك، ونتيجة لانصهار الطرفين معاً. يتكاثف ويصعد لهيب الفصل بينهما، إذن هو فعل ورد فعل عمق وألم الفصل نتيجة الالتحام وشده السبك. في قصيدة أخرى تصور أيضاً عمق المشاعر وصدق الإحساس العاطفي ومعنى التلاحم الروحي ومقدار فعله فتقول:

عندما أرقص معك

يصبح خصري سنبلة قمح

ويصبح شعري

أطول نهر في العالم..

تتلاشى الحدود والآفاق عند الرومانسيين فقد يتحول الوطن إلى حبيبة، وقد يتحول المنزل أو الحي إلى وطن كبير. ونظراً لذلك الحب (القدرة) الخلاق الغامض. المثير الذي يندفع فيه الرومانسيون. نرى طاقات ومفردات التعبير قاصرة

عن بلورة انفعالات وفوران الحب وتواصله وتداخلـــه. لـذا نـــرى الشاعرة في كثير من قصائدها تتجاوز الواقع الذي يلفها لتحلق إلـــى الآفاق في القصيدة السابقة فتستعمل أطول نهر في العالم للدلالة على مدى التداخل الذي تشعر به عندما ترقص مع الحبيب وكيف يحولـها إلى سنبلة قمح. خضراء يانعة معطاء. وفي قصيدة أخـــرى الحـــب وسام رفعة وشرف، وجواز سفر يفتح أمامه العالم. ويخـــرج مـــن العالم المادي إلى العالم الروحي. وبمجرد أن حملت الـــروح إسـم الحبيب، يتلقاها العالم المتحضر بكـــل الإحـــترام والـــترحيب. إذن فالعشق أو الحب هو منتهى الحضارة. ورغم كل الاختناقات التـــي تقطع طرق الحب والعشق إلا أنهم يحملون إمتيازات كبـــيرة عـــن غيرهم وهذا ما تصوره لنا الشاعرة في قصيدة إمتيازات العشاق.

وجهك جواز سفري
أجوب بـه العالم
وأدخل به جميع الموانئ والمطارات
وعندما يراك رجال الأمن
مخبوءاً في عيني...
يفتحون صالة الشرف لي..
ويقدمون المرطبات والأزهار
ويعطونني أفضلية المرور
لأنني عاشقة.

في القصيدة السابقة يتحول العالم إلى واحة فسيحة تدخلها بكل احترام وفي قصيدة أخرى يتحول المنفى إلى وطن:

بين ذراعيك

يتحول المنفى

إلـى وطـن...

إن التصوير نوع من البلاغة التي تصل إلـى حـد المبالغـة أحياناً. وهذا شأن الرومانسيين في مواجهة سـحر الطبيعـة التـي ينتشون فيها فيندمجون بها وتصبح معانيها جزءاً حتمياً من الطبيعة.. وفي قصيدة أخرى ترسم الشاعرة بعـض المذكـرات والخواطـر اليومية التي تجيش بها ذاكرتها في ساعة ما. فيتوقف عندها القلـم ويرسم صورة شعاعية قد تشكل جسداً مبتوراً أو روحاً هائمة تبحث عن مكنون كنزها، إن القلم يعجز عن التحليق مع خيـال الشـاعرة والدخول إلى دهاليز كنزها الثمين الذي مّنّ الله به عليها.. لنقف مـع محطات من خيالها:

موسيقى صوتك

وبيانو كلبدرمان...

جناحان أطير بهما نحوك

فافتح شفتيك

لأسقط كحبة كرز بينهما

وفي أخرى ترسم المحراب من الرماد..

أصابعك تشتعل فوق الطاولة

كشمع الكنائس

وأنا

أريد أن أصلي..

لنغوص في إحدى بحار الحب مع الشـاعرة فـالحب عـالم مجهول يكتنفه الإبهام وليس مجرد صدفـة عاديـة يلقاهـا المـرء

معروضة أمامه.. إنه إبحار في محيطات لا قاع لها بحثاً عن سر الحياة المدفون في النفس البشرية. فمنذ الولادة يولد مع الإنسان ثم يتحول إلى بحار تتلاطم فيها كل أمواج الحياة، ويُعتبر الغوص فيها مخاطرة أحياناً. إلا أن النفس البشرية تحب المخاطر لصيد أو لنبش مكمن الحب من ضمن تلك الأمواج العاتية. فيتحقق الحلم والسعادة معاً (في الدانية الأغلى):

عندما كنت طفلة

كنت أستمع مأخوذة

إلى حكايا اللؤلؤ في بلادي

وكيف كان الغواصون الشجعان

يعطون حياتهم للفوز بدانية جميلة

وعندما أصبحت إمرأة

عرفت لذة الغوص في المجهول

لأحصل عليك

يا أغلى دانية في حياتي

ثم تشير إلى عمق الحب في قلبها ودفء حناياه. وقدرته على خلق السعادة في الحياة ثم تبقى في مجال التحليق لتعبر للحبيب عن مدى حبها وما يفعله في /القمر/:

أصرخ أحبك

فيترك القمر بيته... وزوجته.... وأولاده

ويندس تحت شراشفي...

الحب هو دفء الحياة... وطعمها اللذيذ. وحيويتها، وشبابها. ونعومتها. وعرش سعادتها ووجودها. فالإنسان بلا حب يتحول إلى

آلة صماء تُزَوَد بالوقود كي تعمل وتُنتج. وها هي شاعرتنا تصور لنا كيف يُصاب المرء (بضربة حب) التي هي قدر الإنسان وشريانه النابض بالحياة... فقد تدثرت البطلة في سويسرا بثياب صوفية سميكة وارتدت ألف قبعة وألف كنزة صوفية كي تحمي نفسها من البرد. إلا أنها رغم كل الحماية فقد أصيبت بضربة حب في قلبها الذي نسيت أن تدثره وتحميه. فالإنسان يمكن أن يتفادى ضربة البرد والمرض والأمور العادية المادية إلا أنه لا يمكن إلا أن يقع في ضربة حب. أي لا يمكن أن يتحصن المرء من الحب.. والقلب الذي لم يقع في الحب فهو مريض مشوه، وذو عاهة نفسية وروحية.. فالقلب إن لم يورق بالحب وحنانه سيتصلب ويتحجر ويحتاج إلى علاج نفسي وروحي.

يقولون لي في سويسرا
البسي ثياباً صوفية سميكة
كي لا تُصابي بضربة برد
أطعتهم
وتدثرت بألف قبعة
وألف كنزة صوفية
ولكنني رغم كل ما حصنت به جسدي
نسيت أن أحصن قلبي
فأصبت بضربة حب.

ثم تتابع في وصف قيمة الحب ومعناه. وعندما يخلو القلب من الحب يتحول إلى حجر وجماد لا روح فيه فالحب هو نبض الروح في الفؤاد ومركز الإنسانية في الإنسان وها هي شاعرتنا تؤكد في

تلك الكلمات معنى وعمق ودور الحب:

دعوت الله ذات ليلة

أن يحررني من حبك

فاستجاب الله لدعائي

وحولني إلى حجر..

ثم تعود لتؤكد بأن الحب ليس مجرد حبيب معين أو رجل بل إنه ذرا وقمم هذا العالم. ولو أن المرأة رمت نفسها من أعلى قمم العالم تخلصاً من الحبيب لوجدوها ممددة بين ذراعيه ثانية. أي أنه لا انقطاع عن الحب، ولا هروب منه:

لو رميت نفسي من قمة هذا العالم

لأتخلص من أفيون حبك

لوجدني الناس

ممدودة بين ذراعيك..

فالحب نشوى ونشاط والصمت أبلغ من الكلام إلا في إضاءات الحب. الحب وحده يحب تكرار مفرداته. فهو كالشروق بعد ليل طويل أم قصير وكلمات الحب تجدد ثواني الحياة ودقات الفؤاد وكلما تكررت كلماته تزداد وجداً وشوقاً وحرارة وتبعث مذاقاً أحلى ويرق فيها رنين أوتار نغمات الحب. وتعبر الشاعرة على أن تكرار كلمات الحب تزيل صدأ النفوس وإن لم تقل بالكلمات فهي تنساب مع صمت وهمس العيون. في قصيدة.. سر نسائي..

قل لي: أحبكِ

قل لي: أحبكِ...

أعرف إنك تكره التكرار

وأعرف رأيك في الكلام الصامت

وفي الصمت الذي يتكلم

ويظل التساؤل مبهماً غامضاً كالسيف المسلط على الرقـــاب.. يضيف أبعاداً ودلالات وأبحراً جديدة للحبيب فتترك لنـــا الشـــاعرة أبواب الحب مفتوحة لمعاني وقادة وطرقاً خلابة، وتشعرنا في كـــل قصيدة بأن كل التعابير والأشكال والمعاني ما هي إلا جزء قليل مما تجيش به نفسها التي تحمل أشياء أكبر وأعمق وأرق وأغـــزر ممـــا دونته وأصبح مطروحاً على الورق وهنا في تساؤلات:

يسألونني ما لون السماء؟

هل هي زرقاء

أم حمراء

أم بنفسجية.

فأطلب منهم، أن يتوجهوا بالسؤال إليك.

لأنك سمائي..

في بداية تشكل نبضات الحب عند الفتاة ينتاب الفتاة إنقـــلاب جذري في نظرتها إلى الحياة ومعانيها ومفاهيمها. إذن الحب بدايـــة تشكل البراعم وفي كل بداية صخب وضجة وضبابية إلى أن تتوضح الرؤيا، تساؤلات طفولية صادقة:

أسمع في دمي ضجة غير اعتيادية.

هل هذا هو الحب؟...

ليس أصدق من الثورة في الشعر الرومانســـي. لأن الثـــورة يجب أن تكون أبدية وليس ثورة خاصة آنية. وهذا دليل على انخراط الرومانسيين بعريكة المجتمع، آلامه وآماله. أفراحه وأحزانـــه. ولا

يمكن تجاهل الدور الايجابي للرومانسيين في اقرار المبادئ الانسانية وها هي سعاد الصباح ثورة بحد ذاتها لتصحيح الأخطاء. ثورة لـــها مبادئ ومقومات قوامها الوعي والإدراك وحُسن الاختيار. فالحريـــة من أهم مقومات الإختيار الصحيح وليست إنقياداً أعمى. تفانٍ فـــي سبيل الحصول على ما يريد الحبيب ولكن ضمـــن حريـــة اختيـــار الحبيب. فالحبيب المثقف هو الذي يعي ويقدر هذا التفاني:

لو كنت أعرف إنك تهوى الكتب

إلى هذا الحد

لاشتريت أثوابي من المكتبات..

كل الاستعمار منبوذ بفيـــض علـــى النفـــوس، ومنـــذ الأزل ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان موجودة وقائمـــة، وشـــاعرتنا تعتبر نفسها منذ الأزل تحمل لواء الدفاع عن حقوق المـــرأة. ضـــد جبروت الرجل وصلفه واحتكاره القيادة، وفرضه كل رغباته علـــى المرأة قسراً ولكن عندما يتحرر الرجل من كـــل التعقيـــدات التـــي سيطرت على مسلكه وتصرفاته.. عندما يكون مثقفاً متحضراً يُقـــدر معنى الحب والتبادل بين الرجل والمرأة متحرراً من الأنانية التـــي تُبيح لنفسها الحب وتحجبه عن المرأة، عندها فقط لا مـــانع مـــن أن يجثو الحبيب في قلب وكيان وأنفاس الحبيبة. عندما يصل الحب إلـــى معنى الكمال في العلاقة بين الرجل والمرأة، فالحب هو أخذ وعطـــاء إحساس متبادل بحاجة كل طرف للآخر. عندها تكون المرأة طرفـــاً مسالماً طيّعاً فتمنح الحبيب مفاتيح قلبها وحياتـــها وتُســـعد فـــي أن يستعمر كل كيانها وللأبد. وهذا ما نراه في أجمل المستعمرين:

إنـني إحدى الأعضاء القديمات

في منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان
ومنذ أن كنت طالبة...
وأنا أمشي في كل المسيرات
التي تطالب في رحيل الاستعمار
ولكنني منذ عرفتك
نسيت حقوقي
ولم أعد متحمسة لرحيلك عني...
يا أجمل المستعمرين.

عندما تذكر سقوف الكنائس تتوارد للذهن أعشاش الحمائم إذن هناك تلاحم أزلي بين تلك السقوف وحمائمها، كناية وتشبيه بليغ بين لواعج الحب وثنايا الشعر فالشعر هو الموئل الأول لسمات الحب وهنا تربط الشاعرة بين ذاك التناغم وطيور الحمام فعندما يتقد الحب تترك الحمائم أعشاشها لتبني عشاً آخر أكثر حناناً ودفئاً بين طيات شعر الحبيبة، فتقول:

أصرخ أحبك....
فتترك الحمائم سقوف الكنائس
لتعمر أعشاشها
في طيات شعري...

تتحول صرخات الحب الحقيقي إلى جوهر مفقود في عالمنا المادي. وهنا استعارة لندرة الجواهر والحب الحقيقي:

أصرخ أحبك..
فيستدير فمي
كخاتم الياقوت.

لقد ملت المرأة من الحب التقليدي والكلام به. تعبت وكلت من الحب الفاتر الشحيح.. سئمت من عناق الجماد والأزهار الجافة التي لا حياة فيها ولا معنى. فطقوس الحب حتى عند أغنى الطبقات هي استمرار للقرون الماضية التي كانت تجلس فيها المرأة على طاولة العشاء تسمع كلمات المديح وتعابير المجاملة. إنه حب أجوف فارغ من الحضارة ومن تفاعلات العصر. فالحب في هذا العصر يختلف عن سلفه ولو ظهر الرجل الحالي بمظهر المثقف المتحضر إلا أنه لا زال أسير عقلية سلفية بالية متحجرة وهنا تظهر الشاعرة حثاً على مخالفة تلك القوانين البالية. تريده حباً معطاء يتشارك فيه الطرفان ينصهران في بوتقة العصر الحالي. فيأخذان منه ويشربان الحب من روح الواقع الجميل والحياة العصرية. نداء للتحرر من السلفية والتقليد الأعمى لحركة الحياة.

تعبت من الكلام التقليدي
عن الحب
تعبت من غزل الموتى
وأزهار الموتى
والجلوس على طاولة العشاء
كل ليلة..
مع قيس بن الملوح
وجميل بثينة
وبقية الأعضاء الدائمين
في نادي الحب العذري
حاول أن تخرج عن النص قليلاً

حاول أن تخترعني

في تلك المقاطع التي وردت نرى ابتكارات جديدة لفنون الحب ومنارات تشع منها أساليب التعامل المتوج بالوفاء والصدق، والإيثار، والعطاء. والتفاني. بعيداً عن الأنانية. والحشو المادي.. فيه تحليق من أجل الحرية في كل مجالات الحياة. وإذا ذكرنا الجرأة في الحب، فالجرأة من مقومات الشخصية المتكاملة القوية، وهذا ما تميزت به شاعرتنا. جرأة متفردة تحب الوضوح والانبلاج كالفجر. تكره التستر والعمل من وراء الكواليس فالحب شيء مقدس خُلق مع الإنسان. وهو روح الحياة وإستمرار تواصلها ونبع عطائها وسبيل خلودها. فلماذا يعتبرونه وصمة عار؟ وجريمة يعاقبُ عليها المجتمع وينبذ من خلاله المرأة بشكل خاص. وتأتي صيحة الشاعرة جلية ترفض التعامل في الحب في الدهاليز العفنة المظلمة. والتي لا تحوي تحت ستارها إلا العفن والتخلف، ولهذا تحاول الشاعرة نشر فضيلة الحب بما يحويه من طبيعة خيّرة وقيم الحق والجمال، تجسيداً للحب أمام المجتمع وعلى مرأى كل الأطراف التي تخنقه. علها تسمو بتلك النفوس الضعيفة إلى المستوى الذي خلقه الله تعالى وجسده في الحب. وبذا تنبذ العادات والتقاليد التي تقف في طريق الحب، فالعالم كله خُلِق من أجل الحب. وللحب طرفان الأول رجل والثاني إمرأة لتكتمل دورة الحياة، فلماذا يتسترون على الطرف الثاني ويغمرونه بالقمع والاحتجاب والتواري.. لذا تقول الشاعرة:

أقول بالفم الملآن

أحبك

أقول باللغات التي أعرفها

وبـاللغات التي لا أعرفها
أحبك
أقول في اجتماع عام
تحضره الشمس... والقمر... وبقية الكواكب
أحبك.
فأنا لا أحترم حباً.
يلبس الأقنعة
ويتحرك خلف الكواليس
ويسكن في (حي الباطنية)

ثم لا تلبث أن ترفد تلك الجرأة الفذة برافد من روافد الخلق الإبداعي والجمال، والحق المكتسب من الخالق عز وجل ألا وهو الحرية. فالحرية خلقت مع الإنسان وهي تجري في عروقه فتجعل من نبضه حركة تدفق الدماء ساخنة أبية تنطق بالحب العظيم الذي لا يعرف الانقسام بين الرجل والمرأة وتحيل فصيلة الدماء إلى فصيلة واحدة كرياتها الحب وخضابها الحب. كما في قصيدة الخليل:

جاءت الممرضة هذا الصباح
سحبت نقطة من دمي
ونقطة من دمك
وأخذتهما إلى مختبر المدينة
لماذا يُتعبون أنفسهم؟
ألا يعرفون إن الحب العظيم
يلغي كل فصائل الدم

ثم ننهي مساحة التعرف على نافذة الحب في شعر سعاد

الصباح بتلك الدوامة التي تدخل فيها المرأة في دارة الرجل ولا تستطيع الخروج منها.. أيضاً هذه من أبواب الحرية فعندما تجد المرأة الرجل الواعي المثقف الذي يميز بين الخير والشر بين الإيثار والأنا بين الاحترام والخوف. بين الضعف والقوة. تدخل إلى عالم قلبه وتدخله عالم قلبها ثم لا تود الخروج من "مطبه".. العاطفي لما وجدت به من نظير لعاطفتها وتقدير لكرامتها. والمرأة بحاجة إلى الرجل (الرجل). كما إن الرجل بحاجة إلى المرأة (المرأة)، تقول:

كما تدخل الطائرة في مطب هوائي
لا تعرف الخروج منه
دخلت في مطبك العاطفي.
أيها الرجل
ولم أعد أعرف باب الدخول
من باب الخروج.

بتلك الكلمات تجسد الشاعرة قيمة الاختيار الحر. وكيف يكون المرء في قمة السعادة حتى لو وقع في مطبات الحياة. عندما يكون اختياره بملء إرادته وحريته.

ومن خلال استراحتنا في واحات الحب الوارفة المعاني والأشكال والتعابير عند سعاد الصباح، نرى أن الحب و إشراق وتجل، مد وجزر، أخذ وعطاء يومي وتكاد كل عناصر الطبيعة تشترك مع الشاعرة لنسج أفنان الحب وجذوره وأعشاشه ثم تغني معها لهذا الحب. والحب عند الشاعرة كما هو عند الرومانسيين يشترك فيه حب الإنسان، وحب الطبيعة، وحب الروح، وحب الحياة، وحب الجمال ويشكلون قوة هائلة تصنع المعجزات. وإن تجتمع تلك

الملكات يتحول الحب إلى طاقة تفتح أمام ناظرها عالماً مبهراً، وبصيرة ثاقبة يملكها العشاق المتصوفون الذين يمكنهم التخلص من أسر الجسد المادي إلى عالم الروح. وهذا النوع من الحب لا يتكامل إلا إذا اقترنت النظرة الحياتية اليومية بنظرة روحانية تخرج عن المألوف. وترتبط بالأرض برباط مقدس لا يفصم وعندما يتبلور يصبح حب الإنسان نفحة من حب الله.

والحب الحقيقي لا يعرف التخاذل، والغموض، الجبن والضعف، الاكتئاب والخوف، والقلق. إنه نوع من التجلي الروحي الذي يصهر نفس الشاعرة ويسمو بها، ويُنير عقلها فتبدع في التحليق فتجسد لنا الخيال مادة محسوسة والغموض الذي لا نراه والأفق البعيد. وحدة ثابتة لها أبعادها وشكلها. علماً بأنه ليس للحب ملامح محدودة أو شخصية ثابتة بل هو وصف لهذه الحياة.

تتميز قصائد الشاعرة بدقة التشبيه، وجزالة اللفظ، وحركة الصورة، وإبداع التلوين، وصدق العاطفة، وجرأة الطرح، والأسلوب الشيق، والايماءات الصوفية التي نلمسها في أنفاس الهواء، وشعاع الضياء الذي يسري في دروب الظلام يُبدد العتمة القابعة في النفوس. ويحرر الأفكار المرهونة بالقيود الماضية.

يسمو الحب عندها ويتعاظم في عدة قصائد فالذكرى عذاب متجدد.. وتعايش آني مع الماضي إلا أنها تشكل للعاشق وللمحب أملاً.. والأمل يشكل سعادة... والسعادة. تشكل حياة متكاملة لايمكن التخلي عنها. ولذا نرى إن الوجد الروحي هو أقسى وأشد ألماً من الوجد الجسدي والمادي. حتى لو كان مليئاً بالشوق والحنين والمعاناة والألم الحارق، وهذا بدوره يكرس معنى الوفاء والإخلاص والتفاني،

والصدق والعفة وبالتالي يمتن الثقة بالنفس والإباء والعزة والكرامة عند المحب والحبيب.

وكما الحب عند الصوفيين هو عند الشاعرة. حياة باسمة لا نفاق فيها ولا كذب لا رياء ولا أنانية، لا نرجسية. ليس فيه حاكم ومحكوم، آسر وأسير، مالك ومملوك بل هو إنسجام وإنصهار بين قلبين متحررين واعيين لكل معالم الحياة ومتطلباتها. إنه نهر متدفق من العطاء والإيثار والتضحية بالذات والعطاء الروحي هو أبرز صفات الإيثار والتضحية.

وكما نلاحظ لقد تحررت الشاعرة من القافية الواحدة دون أن تجنح إلى الاطناب والخلل في الوحدة الفنية للقصيدة. ولذلك جاءت الأشكال الفنية للقصيدة التي اتبعتها الشاعرة ابتكاراً جديداً لخدمة القصيدة، مما أتاح لها أن تتوغل في الأوزان التي تتلاءم مع المد العاطفي والجزر المعنوي. ولم تكن قصائدها ذات نغمات ومقاطع وألحان فقط بل هي كلمات ذات ألحان تتكلم، وتجربة أورقت فيها الحياة فبثت من خلالها لواعج نفسها ونفوس الآخرين، حملتها مشاعر وأفكاراً. أحاسيس وهواجس، عواطف ساخنة، وأخرى باردة صامتة، وغيرها دافئة معطاء. وتعتبر هذه الحالة النفسية التي توصلها للقارئ صدى الوحدة الفنية للقصيدة. وتشكل تجربة متجددة لها ملامح ملموسة وقسمات مشعة. وبصمات خالدة في تاريخ الشعر الحديث وتاريخ الأدب في نهاية القرن العشرين.

الثورة والتمرد..

الأدب الرومانسي أدب ثائر متمرد منبثق من الآه التي تجـوح الفؤاد. رغم أنه نادى بإعلاء القيم الفردية والذاتية. إلا أنه وُصـف بأدب الثورة. فالثورة هي منهجه وروحه وخاصة للمبادئ الإنسانية. فالثورة عنده أبدية غايتها المثلى إقرار حرية الفرد في المجتمع. وقد أثبت التاريخ مدى التصاق الكتاب الرومانسيين بالواقع وانصـهارهم بالمجتمع فهم بعيدون كل البعد عن الفوقية والقوقعة ضمـن الأنـا الشاعري وجلوسهم في الأبراج العاجية والابتعاد عن الإنسـان. ولا يمكن تجاهل الدور الإيجابي الذي يلعبه الكتاب الرومانسـيون فـي التأكيد على المبادئ الإنسانية والإجتماعية فمنهجهم الإنساني دائمـاً يصحح العلاقة بين الفرد والمجتمع وبين الفرد والموضوع ويؤكـد على أهمية الإنسان كهدف بحد ذاتـه. وذلـك بمهاجمـة التقـاليد، والعادات البالية والمتجمدة والتي تصطدم بالمواقف الإنسانية. وبـهذا يحاربون كل النظم الفاسدة والأعراف المتقوقعة الجـامدة. إذن هـو لخدمة الإنسان والإنسانية. بينما نرى في الأدب الكلاسيكي تخليـداً للعادات والتقاليد والمحافظة على القديم بكل أشـكاله. أكـان يخـدم الإنسانية أم يعود بها إلى الوراء.. فهو أدب الرتابـة والسـكون لا تجدد فيه ولا حيوية ودائماً يعيش وقته وعصـره بنفـس وعقليـة الأسلاف القديمة.

لكل ثورة قائد مناضل جريء وغالباً ما يكون الضحية قبـل انبلاج الثورة. ودائماً يكون المرمى والهدف. وثورة سعاد الصبـاح لتحرير المرأة هي دليل جريء يوجهه الدور الإيجابي الذي يتخـذه الأدب الرومانسي وسيلة جريئة لقلب كل المفاهيم البالية وتصحيـح

الأوضاع الخاطئة. بقلم امرأة ذكية ناضجة نذرت نفسها وقلمها وإبداعها لقلب الواقع المرير. لنبدأ معها بقصيدة الأنثى 2000، ح

ترفض المرأة الشاعرة أساليب الغزل الرخيص والخنوع والتخاذل لدرجة احتساء القهوة في الفراش، ترفض أسلوب المرأة المستسلمة للأنوثة همها الوحيد التكحل والتحميص تحت الشمس والثرثرة على الهاتف والتزين بالياقوت والفيروز والتفرغ للأضواء واللهو دون أي شعور بقيمة الوقت والأيام وآثار البصمات. في الوقت الذي كان بوسعها أن تكون ملكة تأمر وتنهي تعيش على هامش الحياة مرفهة منعمة.. إلا أنها رفضت كل ذلك. رفضت الملاهي والترف والأزياء رفضت ابتلاع الدموع والقهر، الانصياع للقيود، وتجنب أسئلة التاريخ وحرقة المسحوقين وآلام المعذبين لم تستطع أن تصم آذانها عن أنين المحزونين وثورة آلاف الأحياء الأموات الذين تطحنهم دواليب الزمن دون أن يُسمع لهم صوت ودون أن يُرى لهم كيان. فقد قررت الشاعرة أن تنسى أنها أنثى، لمواجهة كل الأعاصير بالكلمات والحقائق ونشر صورة للمرأة التي تنشدها الشاعرة عام 2000

تخلصت من كل العقبات والقيود التي تلغي وجود المرأة الإنسانة واختارت المواجهة ضمن هذه الكلمات أنثى 2000:

كان بوسعي

مثل جميع نساء الأرض

مغازلة المرأة

كان بوسعي

أن أحتسي القهوة في دفء فراشي

وأمارس ثرثرتي على الهاتف
دون شعور بالأيام... وبالساعات
كان بوسعي.. أن أتجمل
أن أتكحل
أن أتدلل
أن أتحمص تحت الشمس
وارقص فوق الموج ككل الحوريات
قد كان بوسعي
أن أتشكل بالفيروز. وبالياقوت
وأن أتثنى كالملكات
قد كان بوسعي أن لا أفعل شيئاً
أن لا أقرأ شيئاً
أن لا أكتب شيئاً.
أن أتفرغ للأضواء... وللأزياء. وللرحلات
قد كان بوسعي
أن لا أرفض
أن لا أغضب
أن لا أصرخ في وجه المآساة.
قد كان بوسعي
أن أبتلع الدمع
أن أبتلع القمع
وأن أتألم مثل جميع المسجونات
قد كان بوسعي

أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
قد كان بوسعي
أن أتجنب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات
لكنني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات.

صرخة من أعماق التاريخ: لِرَفض الأحكام الجائرة، والحقوق المبتورة. والإباحة الفردية والتسلط المعنوي. والحـــدود الشـــائكة، والحواجز الأبدية. لطمس دوائر الفراغ الذي يلفونه حول فكر وعقل وفم المرأة. فجعلوها مخلوقاً ثانوياً في هذه الحياة لا صوت لـــه ولا كيان بتروا وجودها المعنوي والنفسي. فجـــاءت ثورتـــها لتخنـــق الممنوعات ولتقفز من السجون إلى العالم الرحب لتثبت للعالم العـــام والخاص بأنها مخلوق قوي قادر على صنع المستقبل مثل أي رجـــل قوي ضمن حدود الله وبأقوم السُبل. لتبقى مع اعتراضها وثورتها في /فيتو على نون النسوة:

يقولون
إن الكتابة إثم عظيم
فلا تكتبي
وإن الصلاة أمام الحروف... حرام
فلا تقربي
وإن مداد القصائد.. سُمْ

فإياك أن تشربي
وهـاأنـذا
قد شربت كثيراً
فلم أتسمم بحبر الدواه على مكتبي
وهـاأنـذا
قد كتبت كثيراً.
وأضرمت في كل نجم حريقاً كبيراً
فما غضب الله يوماً عليّ
ولا استاء مني النبي

لقد وصلت لحدود السماء في استعمال أدوات الطبيعة، وبقدر ما تزداد مساحة الأفق في مخيلتها يزداد استعمالها لمفردات جديدة وأشياء جديدة، فالطبيعة معطاء وهي خبيرة في استخدام أجزاء الكون الفسيح فيما يخدم خيالها الخصب ويزين أحرفها والكم الذي تستعمله من المفردات.

في قصيدة أخرى تنفي الخصوصية عن الرجال والإباحة لهم في كل شيء فهو ليس القدر المحتوم من السماء بل القدر الحاكم من أصحاب السلطة، والتوحيد للرجل في ممارسة جميع الحقوق. في الوقت الذي يحتم الجمع بين المرأة والرجل لا أن يكون قاصراً على طرف واحد، فدورة الحياة لا تكتمل إلا بالطرفين. بل يصبح الفراغ مخيفاً إلا بهما والإرتكاز على طرفين اثنين متقابلين ومتوازيين يعطي دورة الحياة ضياء ونضارة في الألوان.

فالكلام، والتغزل، والإبداع، مخصص للرجل والرجال فقط هم الشعراء والمفكرون والباحثون، والمغنون في حين حَرّم ذاك على

المرأة. لكن الشاعرة جمعت كل هذه الممنوعات. بإيحاءات جديـــدة ومشاعر رقيقة وتحديات صارمة وإثبات وجود متين قادر على كـل التحديات التي أوجدها العرف على الأرض وليســت مــن الســماء وتؤكد لنا كل ذلك من خلال قولها بتساؤلات استغراب.

لمـاذا؟.

يقيـمون هذا الجدار الخرافي

بين الحـقول وبين الشجر

وبين الغيـوم وبين المطر

وما بين أنثى الغزال... والذكر؟.

ومَن قـال: للشعر جـنس؟

وللنـثر جـنس؟

وللفكر جـنس؟

ومن قـال إن الطبيعة

ترفض صوت الطيور الجـميلة؟.

تبين لنا إن الطبيعة ترفض التفرد والأنا والنرجسية فهي لحـن يتناغم فيه الرجل والمرأة وقصيدة ممزوجة بنفس الاثنين معاً إنمـــا المجتمع التقليدي هو الذي يضع كل تلك الحدود.

فهل يمكننا تمييز الكلمات أو الأشعار بين رجل وامـرأة إلا إذا مهرت بالإسم أو الصفة كلا لأن كل منهما ينهل من نبع واحد هـــو النفس البشرية التي هي جزء من لحن الطبيعة بعيداً عن ظلمة القبور وحياة الخفافيش.

وقد تُكّرم المرأة بعد موتها بوضع أحجار الرخام فوق قبرهـا. لكن الشاعرة ترفض ذلك التكريم بعد نهاية الحياة. إنها تريده تكريماً

حياً يمنحها معنى الحياة وهي فيها يمنحها حريتها وانطلاقها ويبـــدو التمرد عنيفاً في أنها تملك القدرة على كسر رخامـــة القـــبر وذبـــح خفافيش العصر – أي المتسلطين الذين يعملون بالخفـــاء ويســـنون الشرائع والقوانين متخذين من الدين سلاحاً ذا حدٍ لا يحتمل النقاش – وبكلماتها هذه يمكنها قلع جذور النفاق وتحطيم عصر الصفيح وهـــي تعلم نتائج تلك الكلمات فقد يجرحونها ويصلبونها ولكنها في النهايـــة ستنتصر وتجسد أروع صورة لغزال جريح وستنال شرف الصلـــب كالسيد المسيح إذن إنها واثقة من النصر لأن القوة التي في داخلـــها والتي هي هبة من الله لن يراها هؤلاء المتسلطون الذين لا يـــرون بالأنثى إلا الضعف والاستكانة وهذا في نظرهم هو العقل والأدب.

أما التحرر والجرأة والفعل والمطالبة بـــالحقوق فـــهذه كلـــها مصدر للخطيئة وللمرأة المنبوذة الشاذة في زمن يصادر فيه الرجـــل كل شيء للمرأة إلا الضعف. لنرى ما تقدمه لنا كلمات التمرد:

يقولون
إني كسرت رخامة قبري
وهذا صحيح
وإني ذبحت خفافيش عصري
وهذا صحيح
وإنني اقتلعت جذور النفاق بشِعري
وحطمت عصر الصفيح
فإن جرحوني
فأجمل ما في الوجود غزال جريح
وإن صلبوني... فشكراً لهم

لقد جعلوني بصف المسيح

يقولون:

إن الأنوثة ضعف

وخير النساء هي المرأة الراضية

وإن التحرر رأس الخطايا

وأحلى النساء هي المرأة الجارية

تعرية للحقائق من الزيف الذي يلفها، ونشرها على لوائح المجتمع سيجعل مركبات النقص عند الرجال، الضعف والسلفية وعدم القدرة على التطور – يثور ويثأر لنفسه ويغطي ضعفه بجبروته على المرأة وكم فمها وحجب الرؤيا عنها.

وأبسط التهم التي توجه إلى الأديبات أو الشاعرات أو النساء اللواتي يُعبرن عن وعي كامن، وصراحة جريئة، وصدق سريرة، وادراك عام لمعنى الحياة ومنطق سليم واع وثقافة وعلم وإخلاص. هي تهمة الغواني وكأن كل الصفات الحميدة هي من صفات الغواني اللواتي يعشن حتى الثمالة.

أما الزيف والاستسلام والجهل والنفاق والضعف والغباء والسطحية صفات المرأة المُثلى التي يرغبها المجتمع ويُشيد بها إذن. إن المجتمع المتخلف هو الذي يرفض تحرر المرأة وقوتها في الحالة الطبيعية. فكيف إذا مزقت الأطر وأمسكت بالقلم واحترفت الأدب والفكر لتُنير الدرب أمام بنات جنسها وهذا ما فعلته رائدتنا الجريئة إذ تقول:

يقولون

إن الأديبات نوع غريب

من العشب... ترفضه البادية
وإن التي تكتب الشعر...
ليست سوى غانية!!..
وأضحك من كل ما قيل عني
وأرفض أفكار عصر التنك
ومنطق عصر التنك
وأبقى أغني على قمتي العالية.
وأعرف إن الرعود ستمضي
وإن الزوابع تمضي
وإن الخفافيش تمضي
وأعرف إنهم زائلون
وإني أنا الباقية.

انتصار للروح... انتصار للأمل، للرجاء.. للثبات، للعزيمة، للتفاؤل، للحق، فلابد لتلك الدهاليز المظلمة ضمن العقول البالية التي أكلها الصدأ وعشش فيها العفن – فباتت لا ترى في المرأة إلا الضعف، والمخلوق التافه المهيض الجناح من أن تندثر يوماً وتفور ضمن قوقعتهما. ولابد لفجر النور من الانبلاج ولابد في النهاية من انتصار الحق مهما حاق به الباطل والظلم. فقوانين الطبيعة ثابتة بثبات الوجود مهما حاولت يد الانسان احتكارها.. أو ترصدها. أو تغليفها بغلاف من حديد.

ثورة وانطلاقة أخرى في كل قصيدة ثورة جديدة لها فنها ونمطها المميز. وتحد آخر أنها كالنار تحرق من تريد وكالبلسم تشفي من تريد. تنطلق كالماء من كينونتها لتخلع الحبيب من جذوره

وترمي به بين نصال تحديها لتطحنه الفصال وتطحن معه مجتمعاً نصّب أشباه الرجال على قمة الحكم امرأة عريقة الجذور نفطية الحواس صلبة العود ترفض الاستبداد لا تبالي بهجمات مجتمع رقدت الرجعية بين جنباته. وران عليه الجمود والتحجر. فهي تريد ردم ذلك المجتمع بكل عاداته وأشكاله التي تبدو للعيان بمنتهى التقدم والرقي وفي داخلها يئن ماضي عفن متسلط لن يعرف طريقاً للتقدم والحضارة. تجرف من ينابيع الرومانسية الحب والحلم والتمرد. وتروي بها جفاف القلوب وتمنع تشقق الشرايين في أوردة العادات والتقاليد حيث تمطرنا الشاعرة نفحة من ديمة صيفية تقتل الجذور العفنة ثم تعيد غرسها من جديد بانطلاقة أطيافها وتحدي أسلوبها وحلاوة كلماتها الملونة القاسية مرة... والرطبة الحنونة مرة أخرى تجرح ثم تداوي مكان الجرح في فتافيت إمرأة:

أيها السيد.. إنني إمرأة نفطية
تطلع كالخنجر من تحت الرمال
تتحدى كتب التنجيم
والسحر
وإرهاب المماليك
وأشباه الرجال
إنني فاطمة
أصرخ كالذئبة في الليل
وسيارات أهل الكهف جاءت لاعتقالي
أيها السيد
إني إمرأة مجنونة جداً..

ولا وصف لحالي.

إن عشقي لك من باب الخرافات

فلا تكسِر خيالي

من التحدي والرفض والعنف إلى الرقة والوداعة والدفء. نتابع مع الشاعرة كيف يحتلها الحبيب عندما يكون حبيباً فعلاً يقاسمها الحياة ويشترك معها في كل شيء. هذا هو الرجل الذي تريده الشاعرة أن يكون لها رمزاً وأمناً وسقفاً وسنداً وغطاءً. وهذا الرجل هو الذي احتل منها زمانها ومكانها. نظرها وبطاقتها الشخصية وكل ما لديها حتى إسمها وعنوانها ومنحته كل شيء دون حدود. ثم لا تلبث أن تعود به إلى ينابيع الحياة البريئة إلى الطفولة العذبة الصافية التي لم تخدشها بعد آفات المجتمع وصدأ العادات. تتعلق به قلباً وروحاً وعقلاً ونفْساً. لكنها لا تجد في تلك الطفولة إلا هيكلاً يحوي بداخله رجلاً متسلطاً، أنانياً بلا قلب ولا حكمة ولا إنسانية تجعله يُميز بين الحب والتسلط. بين الحب والاستسلام بين القوة والضعف إذ تقول:

لم يعد عندي زمان

بعدما صدّرت الأزمنة..

أنت سقفي.. وغطائي.. والسند

لم يعد عندي بلاد..

أنت ألغيت عناويني جميعاً..

فإذا ما هتفوا باسمي

فالمقصود أنت

أيها الحاكمني من غير قانون

ومن غير شرائع
أيها الحابسني كالماء بين الأصابع
أيها الطفل الذي لم أستطع تهذيبه
والذي أهديته الصيف
وأهداني الزوابع
أيها الطفل الذي أخرجته من جسدي
كم أنت رائع.
أيها المحتلني
من غير إنذار... وخيل... وجنود
كان لي قبلك أرض.. وحدود
وأضعتُ الأرض في الحب
وضيعت الحدود..

في نهاية القصيدة تتحول من نار الحب الهادئة الوديعة الراغبة في التفاني من أجل الحبيب إلى نار تحرق وتدمر كل شيء. يتحول التفاني إلى سلاح يطرده من كل خلية احتلها من جسدها وقلبها ومن أدق تفاصيل حياتها من نومها ويقظتها من شعاع فكرها، ونضارة نظرتها من أناقة مظهرها ومن عمق مضمونها، فالحب من طرف واحد ليس حباً والتفاني من طرف واحد ليس تفانياً إنما استسلام وضعف. وعندما تجد الشاعرة أنّ حبها من طرف واحد لم ير تجاوباً وعطاءً وتفانياً ورغبات من الطرف الآخر لم يقترن به نداء الروح للروح والود للود، رفضته مهددة، ولفظته حاقدة جريئة ونعتته بالوحشية والتخلف والقوقعة والتسلط. فالحب قوة.. والتسلط ضعف والجرأة قوة.. والوحشية ضعف تقول:

أيها السيد
أخرج من جهازي العصبي
من كتاباتي
وحبري
وسطوري
وشرايين يدي
من ملاءات سريري
من رذاذ الماء ينساب على جسمي صباحاً
من دبابيسي.. وأمشاطي
وكحلي العربي
ليس معقولاً.
بأن تبقى مقيماً سنةً كاملة في شفتي
ليس معقولاً بأن تذبحني
ثم تلقي تهمة الذبح عليّ
أيها السيد
إرفع سيف إرهابك عني
إن هذا ليس حباً
إنه
في أبسط الأوصاف
غزو بربريّ..

جدير بتلك القصيدة أن تكون رواية إذ نجد فيها قصة بكل ما فيها من معنى ومقومات، بداية وعرض ونهاية. حب وهيام ثم تفانٍ بكل العطاء.. وفي النهاية تحصد خيبة الأمل وضياع العمر عندما لم

يكن الحبيب على مستوى الرجولة الحقة التي اعتقدت أنها موجـــودة فيه أكلها الندم واعتصرتها الحسرة فقذفت بـــــه مـــن كـــل كيانـــها ووجودها.

صرخات متتالية تطالب بالحريـــــة تطـــالب بالانعتـــاق مـــن العبودية. تتحرك النزعة الإنسانية إلى الانطلاق مـــن القيـــود إلـــى الخروج من القواقع إلى الهروب من معتقلات القلاع القديمة. تتحول إلى نار تلسع لابسها وحاميها. كل هذا تراه الشاعرة في شـــــخصية الحبيب السيد، الحاكم، المالك، صاحب الحق في كل شـــيء. حيـــث تكمن في شخصيته كل النزعات الاستعمارية. وكيف يقتل بنزعاتـــه. كيانها النفسي والجسدي والروحي كيف يحولها إلى أداة طيعة فـــــي يده. كيف يحولها إلى تابع يدور في فلكه فلم تعد ترى ولا تسمع ولا تدرك الأشياء إلا من خلاله وكما يحب ويرغب. توســـلات رقيقـــة لإزاحة الكابوس عرض شيق لبقايا فتافيت إمرأة:

سيدي، يـا سيدي
أيها الـلابـسني ثوباً من النار عليك
هل من الـممكن
أن ترفع عن صدري وأنـفاسي يديك؟..
أحسن الله إلـيك.
هل من الممكن أن تعتـقني
فـأنـا لا أبـصر الألـوان دونـك
وأنـا لا أسمع الأصـوات
دونـك
وأنا لا أعرف الشمس، ولا البحر

ولا الليل، ولا الأفلاك دونك
أيها السيد
إني كنت في بحر بلادي لؤلؤة
ثم ألقاني الهوى بين يديك
فأنا الآن فتافيت امرأة
أيها السيد
لو حاولت أن تُمسكني
لن ترى إلا فتافيت إمرأة

إنها أروع وأبدع لوحة لفنانة رسمت مجسماً لامـــرأة أكلـــها الاستعمار والتسلط والتبعية ولم يبق منها إلا هيكلاً أجوف من كـــل معاني الحياة الخاصة والإنسانية الحقة. نرى في ديوان فتافيت إمرأة تحولاً ثورياً رومانسياً نابضاً بالقسوة والتمرد بالثورة والسخط علـــى بقاء المرأة آلة تدور في فلك الرجل، تعيش تحت رحمته يفعل بها ما يشاء وكيفما يشاء بكل أنانيته ونرجسيته بكل سلفيته الضيقة وركوده الأزلي وجذوره العفنة حيناً، ونابضاً بالرومانسية الإيجابية الدافئـــة التي تخلق من الحب طاقة تحارب بها الإذلال والخنوع والانقيـــاد. تخلق من الحب قدرة تنمي قدرة الإنسان على إثبات الوجود وخلـــق التوازن والتكامل خاصة بين المرأة والرجل.

ونرى في بعض قصائد فتافيت امرأة أضواء خافتة تسلط على المجتمع لخوض معركة مصيرية تضع المـــرأة فـــي خـــط دفـــاع والمجتمع في خط آخر وتبدأ العراك رغم عدم التكافؤ بين الطرفين.

وهذا لم يجعلها تيأس من الرومانسية كسلاح فكري ووجدانـــي وشعري قادر على التأثير الإيجابي فالمعركة ليســـت بيـــن الحيـــاة

والموت، بل هي سبيل لإيجاد جو من التفاهم والتناغم بينهما وربط كل منهما بالآخر بحيث لا يستطيع أن يحيا أحدهما دون الآخر وهي مواجهة حتمية بين الجديد والقديم، بين الحضارة الفعلية والسلفية المتسلطة في قالب الحضارة المزيف. كما نشعر بعبق الرومانسي القديم الذي يحتفظ بعنفوانه كثورة ضد كل مظاهر التقليد الأعمى، والتجمد الفكري والتصنع في الأشياء وينادي بالعودة للطبيعة وقوانينها التي لا تعرف الركود فهي دائماً وأبداً في تطور مستمر وتجدد دائم كي تستمر الحياة. وبهذا استعملت أسلوبها الرومانسي هذا لتوجيه سهام النقد والتهديد والتشهير والتعرية إلى قلب المجتمع والعادات علّها تبدل دماءها الداكنة بدماء نظيفة حرة خالية من الشوائب والأمراض. وهذا لم نره إلا قليلاً في ديوان "أمنية" و"إليك ياولدي" حيث أطلقت مشاعرها الإنسانية وأفكارها العميقة وخيالها الفسيح.

في قصيدة أوراق من مفكرة تلملم الشاعرة قواها من فتافيت إمرأة. ثم تخرج لنا إمرأة في منتهى القوة والصلابة والتماسك والشجاعة ومركز الحياة حيث يتجمع عندها وفي محيطها كل المراكب ولقالق البحر ونجوم الصيف. وهي بهذا تبلور لنا قيمتها في الحياة وقوتها للوقوف في وجه التخلف والسيطرة وسلطة الأموات. تعلن عن بدء ثورتها فهي هاربة من خرافات الماضي وقيود القبيلة وسلطة السلفية التي تحكم الحاضر وهذا ما أرادته الشاعرة. إن ما يحكم العصر الحالي عقول وقوانين أجداد الأجداد وهو بدوره حكم من الأموات على الأحياء إلا أنها تتحدى كل ذاك ثم تفتخر بأصولها النخيلية العربية العريقة وتتصف بالجرأة والثبات والمبادرة والسيادة

الحقيقية:

أنـا الخليجية
التي يمر من بين شفتيها خط الاستواء
وعلى خيطان دشداشتها
تتجمع مراكب النواخذة
ولقالق البحر
ونجوم الصيف المتساقطة
من حدائق الله
أنا شجرة الدر الدائمةُ الاخضرار
وفاكهة النار والنحاس
وزهرة الحلم والنعاس
أنا البدوية
التي جاءت إليك من بحار الصين
لتتعلم الحب في مدرستك
فعلمني
أنـا الخليجية
الهاربة من كتاب ألف ليلة
ووصايا القبيلة
وسلطة الموتى
والتي تتحدى... حين تكون معك
حركة التاريخ وجاذبية الأرض
أنا النخلة العربية الأصول
والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول

فبارك ثورتي

أنـا الخليجية

التي نصفها سمكة

ونصفها إمرأة

أنا الناي.. والربابة... والقهوة المرة

لم يصل الغرور إلى قوتها وثقتها بنفسها رغم معرفتها لمكنون ذاتها وما تتمتع به من ذكاء وحضارة ومعرفة في أمور الحياة. فهي تعلم أن الحب لا يتكون إلا في ظل التفاهم والتكامل بين الرجل والمرأة ولذا نراها تتواضع وتتجاهل معنى الحب ثم تطلب من الرجل أن يكون مدرستها في الحب. ثم تفرش له درب الحب هذا بما تشع به مدرستها هي ليأخذ منه ويتعلم. فمن مدرستها شجرة الدر الدائمة الخضرة وفاكهة النار والنحاس وزهرة الحلم والنعاس. وما ثورتها ضد تخلف الرجل وتسلطه وتحجر المجتمع من أجلها فقط بل من أجل أن تعيد بناء الرجل على الطريق الصحيح من أجل أن يتخلص من كل القيود ويعيش حراً شجاعاً رجلاً يعرف معنى الحياة ويلتف معها بيد واحدة كي تتحدى به حركة التاريخ وجاذبية الأرض. والرجل والمرأة هما دورة الحياة وكل منهما يكمل الآخر. وعندما يتقن الرجل فن الحب تكون المرأة له نبع السعادة وموئل الراحة ونهر الحنان. وما الناي والربابة والقهوة المرة، إلا رمز لذلك. وعندما يرفض الرجل معرفة فن الحب المتكامل، يكون نصيراً للتخلف ومسانداً لحكم الأموات والمرأة نبع يتدفق حضارة. عندها ستتحول المرأة إلى مهرة شاردة تكتب بأظافرها معنى الحرية وتقتل الخرافة التي تنادي بقيدها وزجها في السجون:

أنـا المهرة الشاردة
التي تكتب بحوافرها نشيد الحرية.
أنـا الخنجر البحري الأزرق
الذي لن يستريح
حتى يقتل الخرافة
أنـا الخليجية
التي تقاتل بأظافرها
من أجل أن يكون الخبز للجميع
والمطر للجميع
والحب للجميع
والتي تقاوم ملح البحر
وتيارات الأعماق
والرجال الذين لهم أسنان سمك القرش
وعيون الشرطة السرية.

هنا نرى إن ثورتها ليست من أجلها فقط من أجل نفسها وذاتها بل من أجل نصرة الإنسانية جمعاء من أجل أن يعم الخير والرفاه والسعادة على الجميع، من أجل ذلك تتحمل كل المخاطر تحارب كل أشكال العنف تقاوم ملح البحر تيارات الأعماق الرجال الذين لهم أسنان سمك القرش عيون الشرطة كلها مصادر عنف وقوة تتحرك ضد حرية المرأة.

أنـا الخليجية
المعتصمة في الخوابي

أنا الغجرية التي تحملك في خلاخيلها
وتسافر بك إلى آخر حدود الدنيا
وإلى آخر حدود الوله
يا من يشعل بياض الثلج
ويشعل ذاكرتي
أنا قصيدتك المكتوبة بحبر الأنوثة
أنا عصفورتك
أنا جزيرتك
أنا كنيستك
فاسمع أجراس حنيني
واطرق الباب عليّ في أي وقت تريد
وعلق على أهدابي
أحزانك.

هكذا تختم الشاعرة القصيدة بفيض من الأنوثة العارمة حب وحنان ومودة فليست المعركة بين رجل وإمرأة، بين حبيب وحبيبة. وكيف يحارب الرجل وطنه وعصفورته وجزيرته وكنيسته وحبه إذا كانت المرأة هي كل هؤلاء. وهل يحارب نفسه؟؟ هل يحارب نبع حياته وجمالها والحضن الدافئ الذي يضمه والبسمة المشرقة التي تشع عليه الأمان وتغسل له همومه هل يقضي على كل هذه المصادر الباعثة للحياة ليعود إلى الظلام والهموم والتعاسة.

كلما أعدنا قراءة هذه القصيدة نرى فيها معنى جديداً ويُبهرنا الكم الكبير من الصفات والتعابير والمعاني البراقة العميقة الناعمة القوية منها مثلا.

بين شفتيها خط الاستواء، مراكب النواخذة، نجـــوم الصيـــف المتساقطة، من حدائق الله شجرة الدر، فاكهة النار والنحاس، زهـــرة الحلم والنعاس، النخلة العربية الأصول، أنا الناي، والربابة، والقـــهوة المرة، المعتصمة في الخوابي، تحملك في خلاخيلها، تسافر بك إلـــى آخر حدود الوله، يشعل بياض الثلج، يشعل ذاكرتي، بحبر الأنوثـــة، أنا عصفورتك جزيرتك، كنيستك، إسمع أجراس حنيني، علق علـــى أهدابي أحزانك. كلها تعابير تثير الدفء في الجمـــاد ويـــورق بـــها الرماد ويتحلل الصخر وينبجس منه الماء.

وفي تعابير التمرد والمجابهة أيضاً ما هو أشد فتكاً من السلاح والكيمياء. الهاربة من كتاب ألف ليلة، ووصايـــا القبيلـــة، وســـلطة الموتى. المرأة الرافضة لأنصاف الحلول، المهرة الشـــاردة. تكتـــب بحوافراها نشيد الحرية. أنا الخنجر البحري الأزرق، يقتل الخرافـــة، تقاتل بأظافرها، تقاوم ملح البحر، وتيارات الأعماق، والرجال الذيـــن لهم أسنان سمك القرش، وعيون الشرطة، لنضف هذه التعابير إلـــى قاموس الحب والحرية في قصيدة توسلات خوف وقلق حب وحيرة، حب للرجل وخوف من أن يتحول ذاك الحب إلى حواجـــز تطمـــس وتخفي وجود الحبيبة وكيانها وذاتها. توسلات عميقة وديعة هادئـــة ناعمة لكنها لا تنطوي على الضعف والاستسلام والخنوع بل علـــى الاصرار والمثابرة للدفاع عن ذات المرأة ووجودها المعنوي ومـــا يحويه من كنوز ومواهب وطاقات. وإن كان يبدو بأن الحـــب هـــو المبتغى:

أتوسل إليك

أن لا تقف بين كتابي وبيني

بين ضوء عيني

وعيني

بين كحلي... وهدبي

بين فمي... وصوتي

فهذا ظلم لا أحتمله

هنا يبدو الحب ظلماً، وتسلطاً لا يحتمل. وقد نعود لفتافيت إمرأة فالتحكم في ضوء العين والكحل والهدب والفم والصوت صورة لاستعمار جائر وتسلط أناني إلا أنها لا تنهار كما في فتافيت إمرأة بل بقيت متماسكة صلبة قوية تتوسل وهي تعلم ماذا تريد ومتى تريد وكيفما تريد. لتحمي نفسها وذاتها وتثبت وجودها الذي يمكن أن يغير ويقلل من تسلط الحبيب ويعود إلى الحب الحقيقي.

أتوسل إليك

أن لا تقف بين مرآتي... ووجهي

بين قامتي... وظلي

بين أصابعي... وورقي.

بين فنجان قهوتي... وبين شفتي

فهذا استعمار لا أحتمله

أتوسل إليك

أن لا تطحنني

بين التزاماتي العاطفية نحوك

والتزاماتي التاريخية نحو قبيلتي

بين وصايا أبي العشر

ووصاياك العشر

بين قبلات أمي المضرجة بالعسل.
وقبلاتي المضرجة بالجنون.
أتوسل إليك
أن ترفع يدك عن أجزاء الوطن
وعن ترتيب أيامي
فيا أيها الإقطاعي
الذي يتجول على حصانه فوق شرايين يدي
ويمسك بيديه مفاتيح عمري
ويختم على شفتي بالشمع الأحمر
أتوسل إليك للمرة الألف
أن تمنحني حرية الصراخ
وأن لا تقف بيني وبين الغيوم
عندما تمطر السماء

إنها نرجسية الحبيب التي تدفع بصاحبها لأن يعشق نفسه ويمتلك كل شيء ويصبغه بنفسه. صورة متدفقة لظلم أزلي واستملاك أبدي لكل جزء من أجزاء المرأة وبالتالي يقضي على نصف المجتمع. فالمجتمع نصفان نصف يمتلك ونصف يُمتَلَك نصف يَحكم ونصف محكوم، محكوم عقلاً، وجسداً، وروحاً، وكياناً، وقلباً، لنعد إلى الصورة قليلاً.

تتوسل إليه أن لا يقف بين الكتاب وبينها، بين ضوء العين والعين، بين الكحل والهدب، الفم والصوت، المرآة والوجه، القامة والظل، الأصابع والورق، الفنجان والشفة، القميص والشرشف، ثم تكرر التوسلات أن يرفع يده عن أجزاء وطنها. ثم (الذي يتجول

على حصانه فوق شرايين يدي) ويمتلك مفاتيح العمر، ويختم بالشمع الأحمر شفتيها ثم تطالب بحرية الصراخ، وأن لا يقف بين الغيمة وبينها. كلها صور قاسية مؤلمة مخيفة، عتية صارخه أزلية تعبر عما تعانيه المرأة من كابوس التحكم والظلم والقيد المفروض عليها بكل جزئيات كيانها وحياتها مهما صَغُرت، حتى الصراخ الذي يولد مع الجنين ليعلن بداية الحياة والحرية.

صورة مأساوية كئيبة صادقة لرجل عاجز عن الخروج من ضخامة حجمه وتحجر عقله وكتلة أنانيته وحجم أطماعه وجشعه، فهو عنيف، جبار، متخلف، يُسعد بممارسة كل أشكال الضغوط السالفة، ليفسح لنفسه أن يسرح ويرتع في هذه الحياة وأن يكون كل شيء على الإطلاق الكاتب والشاعر الحبيب المعبود والرجل الحاكم والاقطاعي والمالك حتى للزمن الذي يعيشه.

إنها مطالبة بالديمقراطية التي تجسد قيم العلاقات الانسانية وفي أولها الحب، فالحب هو تكامل وتناغم وانصهار كل منهما بالآخر وفي مقدمته الإيثار وليس تملكاً واستعماراً وقوة.

في كل قصيدة نرى إبداعاً وإبتكاراً جديداً، كل القصائد تحمل دماً من فصيلة واحدة زمرتها الثورة والحرية إلا انها مختلفة الرؤيا مختلفة العلاج والألوان. تسكب لنا الشاعرة نَفسها الإنساني الذي وهبها إياه الله. بصورة جديدة وأسلوب متطور وسلوك قويم. تلون وتكتب وتصف. وتزرع بذرة الحب في قلب الصحراء علّها تنبت وتزهر وتنمو.

مع صورة أخرى ومحاولة أخرى لقلب المفاهيم البالية. تحاول استئصالها بهدوء وروية. تحاكي فيها جذور الرجل علّها تقتلع العفن

منها أو تجعل النور يدخل إليها كي يمدها بالحياة والنمو. محـــاولات يائسة تارة ومتفائلة تارة أخرى صابرة دؤوبة على وصف العـــلاج في رجل يخاف البحر:

مزقت تذكرة السفر
وقررت أن أعفيك
ابق يا صغيري على اليابسة
فذاكرتك كذاكرة الحجر
لا تحتمل الهجرات الكبرى
ابق مواطناً في مملكة الشجر
حيث التجول ممنوع
وتغيير العناوين ممنوع
والانقلاب على التاريخ ممنوع
إبق ثابتاً في مكانك.. كساعة المحطة.
أو كموقف إجباري لأوتوبيس الدولة.

بداية اليأس من الإصلاح وقفزة حرة في عالم الحريـــة التـــي تبغيها الشاعرة تتذمر من ضعفه ومن تحجر عقله ثم تعمد إلى مدحه وذمه بأسلوبها الرومانسي الذي يمدها بالتحدي الجديد تعود للطبيعـــة التي تنجدها بالتعابير والتشبيه فتجود بما تأخذه من الطبيعـــة (ابـــق مواطناً في مملكة الشجر) تشبيه بليغ فالشجر ثابت ويدل على الخلود والأصالة إلا أنه يدل على الجمود والتحجر حيث التجـــول ممنـــوع وتغير العناوين ممنوع والانقلاب على التاريخ ممنوع، كـــل هـــذه الممنوعات هي كناية عن منع المعرفة والتقدم والحضـــارة، فكلمـــا تجول المرء ازداد نشاطاً وعلماً ومعرفة. وثبات الشـــجر وســـاعة

الحائط وموقف الأوتوبيس كلها دلائل على مدى القوقعة ومرادفات للتحجر العقلي الذي يستكين له الرجل ويتمسك به كي يبقى هو الحاكم الآمر. لم يدر بأن الطرف الآخر أي المرأة ستعيش يوماً وإن طال بها الخنوع والسكوت. وهكذا تشير الشاعرة إلى مكمن الضعف عند الرجل راجية تحريره من كَبوتة الأزلية وخنوعه الداخلي، تبرزها بسلاح التهكم والسخرية علّها تكون صدمة تجعله يصحو، وتنبه إحساس التحدي عنده كي يحاول معها تفهم الحياة ومعنى الحب ثم تتابع:

أيها السيد
الذي يضع ساقاً فوق ساق
ويتغرغر بفتوحاته النسائية القديمة
إنني أعفيك من مجاملتي
لا أريد أن أجعلك عاشقاً رغم أنفك
أنت نجم في علاقاتك العامة
وأنا غجرية
لا تعرف أقنعة المدن
أيها السيد الذي أغمد سيفه
ونسي غريزة القتال
إنني أعفيك أيها السيد من كل شيء
فأنت رجل لا يتقن الألم

إنها نظرة دونية لكنها حقيقة واضحة تبرزها الشاعرة بوصف دقيق لحركة الرجل اليومية التي يمارسها ضمن جدران البيت وخارجه. فهو بطل في فتوحاته ومغامراته النسائية المبطنة. هو نجم

في فن العلاقات العامة وهي غجرية لا تعـــرف الزيـــف. صـــورة صارخة لإجمالي التناقض الذي يعيشه كل من الرجل والمراة. فـــهو يحب الجمود والمحافظة على ممتلكاته (المرأة) ويبحر في علاقاتـــه السرية وانتصاراته مع المرأة وهي مليئة بالحيوية والنشاط والمرونة والدخول في معترك الحياة بكل ما فيه من تجدد وحضارة ومن ثـــم تسامحه ولا تطلب منه أن يحبها لأنها تعلم ما في داخله من أفكـــار مظلمة لذا تعفيه من كل شيء. ثم تتابع:

إبـق أيها الرجل، حيث أنت
إبـق عبداً لعاداتك اليـومية البليدة
تـنتظر قهوتـك في الـثامنة
وإفطار الصباح في التاسعة
إبـق بين ملـفاتك
وبـريدك.. وسيـجارك الكويـتي
مزروعـاً كمِسلّةٍ مصرية

تعرية وفضح لاستكانة الرجل، إنه عبد مأمور حُكِـــم عليـــه بالسجن المؤبد ضمن قوقعة التخلف والسلفية، تصفـــه عبـــداً بليـــداً لعاداته اليومية وساذجاً لا يملك القدرة على الرقي. إنه خنوع تحكمه العادة فتحوله إلى أداة تنفيذ تحركها الرغبات بعيدة عن العقل والثقافة والتقدم. والساذج لا يُطلب منه شيء لأنه حي يرزق بالجسد وميـــت في روحه وكيانه وأحلامه وآماله..

أيها الـرجل المشـنوق على حبال الوقت
إبـق مطمـوراً تحت أرقامك وأوراقك
إبـق واقفاً على مرفـأ الطمأنـينة

أمـا أنـا
فمسافرة مع البحر
ومسافرة مع الشعر
ومسافرة مع البرق
مسافرة في كل الأشياء
التي لا تعرف التوقيت

تحدٍ لاذع يجرف المستحيل ويجابه الصخر الصلد. صورة حيوية متدفقة إصراراً ومثابرة على نيل الحرية. نداء من أعماق الأعماق للإنطلاق ثم تحذير ويأس من الإصلاح. فتقول إبق مشنوقاً على حبال الوقت إبق مطموراً تحت أرقامك وأوراقك. تفرد جناح العزم وتنطلق لتسافر مع البحر للعلم والثقافة مع الشعر للكتابة مع البرق مع كل الأشياء. كلها صور حادة الألوان. خيال يحلق في الرومانسية الخلابة حيث تقرن الحب بالخلق فالخالق وحده يخلق الحب والحب يخلق المعجزات التي عجزت كل الوسائل عن تحقيقها. لأن الحب عند الشاعرة سعاد الصباح يعني الحرية والتكافؤ والتوازي بأي شيء لا يعني الانقياد الأعمى والخنوع والصمت والضعف والجهل. إنه النضوج في الطرفين وقمة الحكمة والعقل بين الرجل والمرأة. لنغص معاً في دياجير عقل المجانين:

يحكون عن كل العصور
عن روما
وقرطبة التي تبكي قبابها في الليل
بدموع عربية
يحكون عن المعجزات السبع

وينسون إنك معجزتي
وعن عصر المأمون الذهبي
وينسون
أن لا عصر ذهبياً إلا عصرك
ولا قيداً أجد فيه حريتي
إلا قيدك

بوح عارم بالحب نداء حزين من قلب مكلوم يبحث عن الحب عن الرجل الذي تعتبره الشاعرة يستحق حبها. فالمرأة الذكية الناضجة ترى في الحب أجمل قيد لها وأجمل حرية تنبعث مع قيد الحبيب، فالحياة تمشي على ساقين اثنين المرأة والرجل وكل منهما يشكل محور الحياة للآخر وضوءه الساطع. فالرجل يحيل الظلمة إلى ضياء والجماد إلى كتلة مشاعر رقيقة، يحيل اليأس إلى أمل والتعب إلى راحة.. يخلق من الكهولة شباباً ومن الفراغ واحة، فيما لو كان الطرفان بقلب واحد وروح واحدة ليس فيه تطرف وأنانية. الكل ينظر إلى أنّ الآخر مكمل له ومتمم لحاجاته. إذن المعجزة التي تفتقدها الشاعرة هي التوافق والانسجام بين الرجل والمرأة.

ثم تتحدث عن الكتب القديمة وكبار العشاق والرسامين والموسيقيين والشعراء إلى أن تقول:

يا الذي اكتشف أنوثتي قبل أن أكتشفها
واخترعني
قبل اختراع النار والشعر
لا أحد يعرف معجزاتك
أيها الرجل الذي حولني في ثوان

إلى قطعة شمس
وسبيكة ذهب

هنا تعود الشاعرة للبدايات الأولى مـــن الخليقـــة. فالعلاقـــة الحميمة التي تربط الرجل بالمرأة ليست اكتشافاً موسيقياً أو شـــعرياً أو حرباً وليست إبداعاً لفن تشكيلي. إنه الحب.. الحب الذي يغـوص في عالم الأنوثة الزاخر بالإثارة والحنان والـــدفء والبكـــاء. هـــو اكتشاف لمواهب النفس البشرية والتي وجدت قبل اكتشـــاف النـــار والشعر. والقصد هنا أنّ العلماء حددوا تاريخ بداية الحضارة البشرية مع اكتشاف النار وهذا ما قصدته الشاعرة حيث العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة ليست اكتشافاً موسيقياً أو شعرياً أو حربـــاً وليســـت إبداعاً لفن تشكيلي إنه الحب.. الحب الذي يغوص في عالم الأنوثـــة. الذاخر بالإثارة والحنان والدفء والعطاء، هو اكتشـــاف لمواهـــب النفس البشرية والتي وجدت قبل اكتشاف النار والشعر- والقصد هنا إن العلماء حددوا تاريخ بداية الحضارة البشرية مع اكتشاف النـــار وهذا ما قصدته الشاعرة إن العلاقة حميمية بين الرجل والمرأة قبل اكتشاف الحضارة فكلاهما بداية الخلق وكلاهما اكتشفا النـــار، ثـــم تشير إلى معجزة الرجل. فيما لو أدرك معنى تلك العلاقة. في خلـــق المستحيل فيحولها إلى شمس أو سبيكة ذهب، وهي كناية عن مـــدى قدرتها على العطاء وإشعاع الـــدفء والقـــوة والســـعادة والخـــير والإخلاص والوفاء والأصالة التي تسعده وتورق حياته.

عود على بدء الرومانسية القديمة حيث ارتبط الحب بـــالجنون. وصفحات التاريخ ملأى عن عشاق الهوى ومجانين العشق منهم من انتحر ومنهم من قضى شهيد الهوى ومات فداء الحبيبة.. يعتـــبرهم

التاريخ مجانين لشدة وفائهم وإخلاصهم للحبيبة. إلا أن هذا العصر قد طمس بعقده وسلبياته كل نوع من أنواع هذا الحب. إنه حب العصر الحديث الحب الذي سيطرت فيه المادة على القلب وتحركت عقدة المال والمصلحة لتسير العقل وتقفل أبواب الحب بالقلب. فالمادة تعني المصلحة، والمصلحة تعني الأنانية وهذه تعني التسلط والجشع وهذا الأخير يتحول بصاحبه إلى بؤرة النفاق والكذب والخداع والمراوغة ليصل لغرضه ومن ثم يعود أدراجه ليبحث عن مكان آخر. لنبق مع مجانين الهوى:

يتحدثون كثيراً عن مجانين الهوى
ومجاذيب العشق
يتحدثون عن البهاليل
الذين شنقوا أنفسهم على ضفائر حبيباتهم
ودخلوا إلى غابات الحزن ولم يعودوا
وقاتلوا في سبيل امرأة.. حتى قُتِلوا
عن قيس بن الملوح
وعن ديك الجن الحمصي
وعن فان غوخ
ولكنني لم أعرف مجنوناً أعقل منك
ولا عاقلاً
أكثر منك جنوناً.

إن كان الجنون الذي يعنيه المجتمع (في تحرير المرأة وقوة شخصيتها ومشاركتها في مسؤوليات الحياة) هذا الجنون هو قمة العقل والوعي. أو الجنون الذي تعنيه الشاعرة حين تصف الجيب

بحديثها عن الرجل الذي يستطيع أن يفجر أنوثتها ويتلقف هيام روحها ويغزل من حنانها تاجاً لقلبه. فهو جدير أن يسكن قلبها وتتوجه ملكاً على عرشها بكل إرادتها:

قرأت عن ملوك تنازلوا عن عروشهم
ليحتفظوا بعرش الحب
يا الذي علمني أبجدية الحنان
وأدخلني جامعة الوله
لا تتنازل أبداً عن عرشك.

دعوة صريحة، إعتراف بأزلية مدرسة الحب عند الرجل، عودة إلى الطفولة التعليمية لكنها تخرجت من مدرسته وجامعاته أكثر منه فهماً ووعياً وإدراكاً لمعاني الحياة، لقد فاقت أستاذها وبدأت تدعوه ليتعلم بمدرستها كي يبقى محتفظاً بعرشه داخل كيانها:

قرأت كل معاجم العشق
وكل رسائل العاشقين
قرأت (طوق الحمام)
و(نشيد الإنشاد) و(مزامير سليمان)
قرأت (أوفيد)... و(عيون الزا)
ولكنني لم أستوعب حتى الآن
قصة تستوعب مُناتا
وقصيدة تتسع لكلانا
ولغة نكفي أن نتمدد فيها... نحن الاثنين
لم أجد يا حبيبي
في كل المكتبات التي ذهبت إليها

وفي كل الكتب التي قرأتها
كلمة... تستطيع أن تقولني
أو مفردة... تستطيع أن تقولك
فيا تاركي مجروحة على زجاج اللغة المستحيلة
أتوسل إليك
أن ترفع يدك عن ثقافتي.

لوحة تاريخية وعصرية تبرز لنا الشاعرة إستكانة الرجل لحياة رتيبة لا تجديد فيها ولا حياة فالروتين القاتل يستحوذ على إحساسه بالرضا على تلك الحياة ظناً منه إنه لن يجد أجمل منها. لذلك يخاف من أية مبادرة في إتجاه التجديد. في حين نرى إن دولاب الزمن يدور بسرعة وبدأت المرأة تدور في مملكة وتلملم بقايا شعورها الإنساني لتطالب بحقها في الوجود والكيان. والرجل يقف على هامش الزمان لا يتفاعل معه أو به. لذلك تتكلم المرأة على لسان الشاعرة بجرأة فريدة متميزة ولأول مرة ترفع شعار التهديد بأنها ستتركه قابعاً في عالمه الخاص وظلمة جهلة. بعد أن عجزت عن إيجاد لغة تفاهم أو قصة حب تجمعهما. رفض قاطع للعيش مع رجل متحجر الأفكار والآراء عاجز عن التطور الثقافي والوعي العام لأمور الحياة.

هذا ولأول مرة نجد مثل هذا الطرح في الشعر العربي وخاصة على لسان إمرأة. إنها رائدة في كل شيء وخاصة في معالجة قضايا المرأة والرجل. إنها تنشد الحياة معه وترحب به بكل أشكال التملك حينما يكون سنداً لها ومعولاً بيدها لقلب المفاهيم الخاطئة، لكنه إذا أصبح عالة عليها وعبئاً ثقيلاً فوق أعباء الحياة

الأخرى فمن الطبيعي أن تتابع مسيرة حياتها دونـــه إذ لا تتوقـف الحياة عند شخص معين أو حدث معين أو أي شيء آخر..

ثم تنتقل لتصف لنا ساحة الشعور الخالية بعد غياب الحبيـب، كيف أصبحت شاي الساعة الخامسة إدماناً نفسياً ملأ كيانها وعشـش في جذور ضلوعها ووصل إلى أدق الشـرايين، فـأصبحت شـاي المساء رمزاً لحبة ودنيا لعشقه ومحراباً لتعبده حيـن قلصـت كـل العبادات إلا عبادته. وهذا ما يجعل المُتعبـد دائمـاً تحـت رحمـة المعبود. دخل شاي المساء في تركيب أنسجتها وباتت تشـربه دواءً لإدمانها ولتتخلص من ذكرى الحبيب فليست العبـارة فـي شـاي الخامسة إنما فيما أحدثه الغياب من عذاب لأنها تعيـش الاخـلاص والوفاء قبل الصدق الطفولي الذي لا يعرف الغش والخداع لتبقى مع شاي الساعة الخامسة:

أصبح شاي الساعة الخامسة
ناقوساً يضرب في ضلوعي
وعبادة يومية أثابر عليها
يوم لا يبقى من العبادات سوى أنت
لا يبقى من المعابد سوى صدرك
أصبح شاي الساعة الخامسة
الدواء الذي أشربه لأشفى
والدواء الذي أشربه
لأموت

دائرة الفراغ كبيرة، إقتلاع الجذور مُر قـاسٍ أليـم، الوحـدة مظلمة قاتلة. كل ما حولها يتبدل فالذكرى أليمة موجعة. غاب عـن

عينها لكن خياله لم يبرح محيطها. لم يبق منه إلا شـــاي الخامســـة، وبات مراً كئيباً جافاً لا حياة فيه ولامعنى له، بعد أن كـــان دنياهـــا ومقلتها وجنتها بعد أن كان محور ارتكاز لحياتـــــها تـــدور حولـــه بسعادة. سقطتْ وهوتْ في قاع الضياع عندما بقيـــت وحيـــدة دون محور ارتكاز والذي لا حياة بدونه، لتبقى:

أصبح شاي الساعة الخامسة

نعمتي.... ولعنتي

بسمتي.... ودمعتي

واحتي.... وورطتي

أصبح الصليب الذي أنزف عليه

والكرباج الذي يلسعني على ظهري

كلما جلست على طاولة تتسع لشخصين

وطلبت فنجانين من الشاي

واحداً لي

وواحداً لرجل لا أعرف متى سيأتي.

شواهد ثابتة على مدى صدق المرأة وإخلاصها وتفانيها فـــي الحب وعلى أنانية ولا مبالاة وطيش وسخرية الرجل مـــن الحـــب. وهذا يعود أيضاً لعقلية الرجل الرجعية وسطحية المرأة فـــي طلبـــه وعدم وجود مكمن حب حقيقي في نفس الرجل. ان استعمال التعابير التالية:

يضرب ضلوعي، عبادة يومية، لا يبقى من العبادات ســـوى أنت، ومن المعابد سوى صدرك، دواء أشـــربه لأشـــفى، وأمـــوت، نعمتي، لعنتي، بسمتي، دمعتي، واحتي، ورطتي، صليـــب أنـــزف

عليه، كرباج يلسعني. كلها مضادات وتعابير تتداولها كل يوم إلا أن التركيبة الخاصة لدى الشاعرة أضفت عليها حركة ودلالات ساحرة تثير في النفس مكامن الحب والوداد والحزن واللوعة، وحرقة الفراق. أيضاً تثير المتناقضات فيشعر القارئ بحركة جامحة بأحاسيسه. فيثور مع الكلمة حقده وغضبه، وكراهيته وتغذي روحه بمشاعر الحب. وتجنح به من عالم المادة إلى عالم الخيال الذي ترسم حدوده ضمن المعقول، دون أن تخرج إلى عالم المستحيل وتغذيها بالرجاء والإيمان والمثابرة والإصرار على نيل الحرية والوصول إلى عالم هادئ تسوده المحبة والمساواة، التفاهم والإيثار. لذلك نراها تنهي القصيدة بأمل من سيكون هذا الذي سيشرب معها الشاي؟؟؟...

نعود إلى دوائر الحبر الصيني في قصيدة "الحب والمعتقل" وكيف يتحول الحبيب إلى سجان متسلط دون أن يدري بانقياده لتطبيق أحكام العرف والعادة. وتستعمل الشاعرة كلمة الحبر الصيني كناية عن العقلية القديمة والصرامة التي يحكم بها الرجل، فالحبر الصيني لا يزول ولا يمحى، توسلات لذلك الحبيب الذي امتدت قسوته لكل جزء من جسدها ويومها وحركة أنفاسها، إذ تقول:

هذه الدوائر التي رسمتها بالحبر الصيني
حول فكري.. وذوقي.. وعاداتي
حول كل بوصة من جسدي
وكل موجة من تموجات نفسي
وكل صغيرة... وكبيرة في حياتي
هذه الدوائر
بدأت تأخذ شكل المعتقل

فلا تضيّق الدائرة عليّ أكثر
لأنني أريدك حبيبي
لا سجّاني

صراخ اللبوة، صراخ الحق والحرية، يكون دائماً عالياً قوياً جريئاً لا يهاب حتى الوحوش الضارية، لا يخاف الموت. فكلمة الحق لن تموت والحرية حق وهبه الله للإنسان فكيف سيأخذه إنسان آخر. بقصيدة رجل تحت الصفر تسفر الشاعرة عن وجه الحقيقة وتعلن للملأ صفات الرجل. تعرّيه حتى العظم. تبدأ بوصفه (هولاكو). الذي عُرف عبر التاريخ بهمجيته المتوحشة، وولعه بالعنف والقتل والتدمير. وها هي الشاعرة تنادي الرجل بهولاكو أيها الرجل السوداوي، المأساوي، العدواني، ثلاث مرادفات لأبشع وأقسى أنواع الوحشية والعدوانية والسادية (فالسادي هو الذي يتلذذ بآلام الآخرين) وحين لا يميز الإنسان بين الحبر والدم، يكون أكثر من سادي متطرف متوحش بلا عقل، ثم تصف الفرق الشاسع بينهما في القلب في الفكر في الذوق حتى في الفعل ورد الفعل فهو رغم كل قسوته ووحشيته ورجعيته وظلمة عقله الأعمى يمارس فن القتل وهي في منتهى الحكمة والعقل والتأني. وهي تمارس فن الصبر، إنها صورة مأساوية لكنها تعيش في قلب الحقيقة الثابتة الأكيدة التي تحصل في أسر الأكثرية الساحقة في وطننا العربي:

يا هولاكو هذا العصر
إرفع عني سيف القهر
إنك رجل سوداويّ
مأساوي

عدوانيّ
لست تفرق بين دمائي
وبين نقاط الحبر
يا هولاكو
ليس هناكْ ما يجمعنا
لا أشياء القلب
ولا أشياء الفكر
أنت تحب ثياب البرَ
وأني أشرس من أسماكِ البحر
أنت تمارس فن القتل
وأنا أتقن فن الصبر

ثم تتابع بإصرار الواثق بالانعتاق من قيد السجون والخلاص ولو على مستواها الفردي تمردها على هولاكو التاسع والتسعين وهذا كناية عن قدم التسلط وأزليته. على المرأة إصرار وَعزم قوي على عدم الرجوع للإستكانة وعدم المثول لأوامر ذاك السجان الوحشي. تصور لنا مدى تألمها واشمئزازها من وحشيته فأصبحت ترى في فمه أشواكاً بدل اللحم والدم أي الحنان وتتصور السرير كالقبر فهل هناك أقسى وأشنع من ذاك الإحساس على قلب المرء. تذكرنا هنا ببيت من الشعر القديم يقول:

وماذا تنفع مزينة السقوف
إذا كانت بأنظار السجون

أي مهما كان المكان جميلاً والسرير ناعماً سيصبح كالأشواك في حال الإحساس بالقهر والتسلط ثم تشير في نهاية القصيدة إلى

برودة تخلفه وجهله في الحياة وقسوته وتسلطه، حيث لم يتركوا لعقله سبيلاً إلى التحضر والمعرفة، فتشبهه بالجماد الذي لا حياة فيه. وهي في فمه الثورة والغليان لنيل الحرية:

يا هولاكو التاسع والتسعين
لن تدخلني بيت الطاعة
فأنا امرأة
تنفر من أفعال الأمر
إن شفاهك مثل الشوك
وإن سريرك مثل القبر
يا هولاكو
لا تتضايق من كلماتي
إني في حال الغليان
وإنك رجل تحت الصفر

انتصار على الآلام، تفوّق في تقرير المصير، تحدٍ للقهر والقاهر، وللظلم والظالم تحدٍ جريء، ثورة من العتاب واللوم، ثورة على الحزن والآهات على الحرمان والعذاب والضياع إنها كبواقي الثورات لكنها تتميز بمعرفة حقيقية لطريق الخلاص ودحر الألم والقهر انتصار على الموقف المتأرجح بين الدموع والابتسامة بين الظلمة والغباء بين الانتظار والسعادة سعادة اللقاء وألم الانتظار الذي يحول الربيع إلى كآبة، والأمل إلى شقاء لنبق مع الشاعرة التي تهلل للحرمان إن كان فيه عزة النفس والكرامة وترفض الحب إن كان فيه القهر والألم والسجن والإذلال. إذ تقول:

قل لمن كان بالمنى يلقاني

ويفني بالبشر حين يراني
كيف بالله غيّرته الليالي
فطواني في غمرة النسيان
شغلته شواغل الدهر عني
بعد أن كنت حبه المتفاني
أيها التائه الذي صهر القلب
وفض الربيع، قبل الأوان
أنت من ضيّع الحقيقة مني
وأشاع الظلام في وجداني
أنت أسلمتني لدوامة الدهر
وأمواجها تهز كياني
أين شوق الهوى وهمس الأماني
وربيع الربى، ورجع الأغاني
إنما ترتوي الأزاهر بالماء
كما يرتوي الهوى بالحنان
كيف أرضى، من هاتفي بحديث
عابر منك، ينقضي في ثوانٍ
لا وربي سأطعم النار قيدي
فأنا لا أذل للسجان
سأولّي لقصة الحب، ظهري
وأغني لعزة الحرمان

في هذه القصيدة رفض قاطع للهامشية التي تقبع فيها المـــرأة فهي دائماً وأبداً رهن الإشارة تنتظر رضا الرجل وتقنع بفضـــلات

الوقت الذي يمنحها إياه، يحتل كل حياتها وجسدها وعقلها وحتى نفسها ويتركها تدور مع عقارب الساعة بانتظار بقايا وقته ليعود إليها أو يتكلم معها وكأنه البلسم الشافي. لكنه لم يحسب حساب الغليان الذي يجيش في جسدها المحترق. تضيء له طريق الحب وتحذره وتنذره تطالبه ببعض الحنان لكنه لا يسمع ولا يرى إلا ما يحمله داخله. وهنا إنذار مع التنفيذ. إصرار على الحرية، لا بكاء بعد اليوم. صفعة قاتلة للرجل لم يكن يحسب لها حساباً. لو أنها قد تسبب زيادة في التسلط والهمجية والعنف إلا أنها حفرت بأحرف من لهب معنى الحرية على جدار الزمن الحالي. وتركت بصمات الدم على تاريخ السلفية والرجعية والقوقعة ودوى صوت صراخها إلى أجيال وأجيال مضت وسيورق وينمو في الأجيال المقبلة.

بهذا أكون قد أوردت معظم القصائد التي تحمل بين طياتها بذور الثورة والتمرد والتحدي، وبين أحرفها قبس من الضياء نشرته الشاعرة سعاد الصباح كي يبدد ظلمة العقول الكالحة وينير دروب الحرية المسلوبة لكنها لم تشر إلى الأماكن المظلمة والمتحجرة التي أكلها العفن وعشش فيها الجهل والتخلف وحسب. بل اضاءت الطريق المثلى، ووصفت لكل مرض دواءً ناجعاً فيه الشفاء والسعادة لكلا الطرفين الرجل والمرأة. فتحت باب السعادة على مصراعيه، عرّت الخطأ وأشارت إلى الصواب الذي ينضوي على السعادة. لقد كانت المرأة كمضمون فكري وإنساني في القضايا الهامة التي شغلت عقول المبدعين وطرحت نفسها على الأدب العالمي منذ العصور القديمة التي بدأت معها مسيرة الحضارة.

وقد لعبت المرأة دوراً أساسياً نقلته لنا السير الشعبية وأحداث

التاريخ وأرست شواهد على وفرة ما تحمله المرأة من ذكاء وإبداع وحكمة ومسؤولية وغيرها. لكنها بقيت متأثرة بنظرة دونية مفادها الإغراء والخطيئة منذ آدم وحواء. وحملوها وزر إخراج آدم من الجنة، ومسؤولية خطأ الإنسانية.

كان للأدب الإغريقي الدور الأول، في ملحمة الأوديسا وغيرها، بوضع شخصية المرأة نداً لند مع الرجل وشريكة له في كفاحه وحياته، وجاء هذا تجسيداً لثورة المرأة ضد الرجل وعبوديته وقد بلغت تلك الثورة لأول مرة في مسرحية ميديا وبالطبع لم يتقبل النقاد والجمهور هذا الاتجاه الثوري، لعدم قدرتهم على استيعاب فكرة المرأة الجريئة المتحررة. فالمرأة في نظرهم وعرفهم لا تتعدى دورها كأم وزوجة. لكن لابد في كل مرحلة من وجود طفرات جريئة. فأخذ يتبلور دور المرأة في تجسيد حريتها وتحقيق ذاتها، وإثبات وجودها من خلال كاتبات عالميات متميزات بجرأتهن أدركن بأن الأديب عاجز عن تصوير فكر المرأة وسلوكها وإحساسها لعدم استطاعته الإحساس بمستوى الشعور نفسه من القهر والظلم، فهي أقدر على وصف إحساس وشعور النساء من غيرهن. فبزغت الروائية الفرنسية (مادلين دي سكودري) التي عاشت في القرن السابع عشر. ثم تبعتها الروائية الفرنسية أيضاً (ماري دي لافاييت) ثم الأديبة الشهيرة (مدام دي ستال) والتي ظهرت باسم (كورين) وكانت لها ريادة جريئة في دراسة سيكولوجية قلب المرأة حين تشعر بالحب. وكتبت غرامياتها الشخصية بصراحة دون خجل كي تثبت للرجل مقدار الظلم والقهر الواقع على المرأة وهكذا امتلأت صفحات التاريخ بأسماء الكتاب والكاتبات الذين طرقوا باب الثورة

النسائية، متحدين بذلك ظروف المجتمع ومؤكدين على المواجهة بين المرأة والرجل ومن أبرزهم الكتاب والشعراء الذين انبثقوا من إنكلترا فمنهم (تشارلز ديكنز) الذي عبّرت رواياته عن قصص الغرام التي تواكب الأحداث والمواقف الواقعية الأخرى.

فالحياة بدون قلب المرأة وحنانها خالية جافة لا قيمة لا. وجاء الإنكليزي (جورج ميريدث) ليثبت أن المرأة ليست قلباً نابضاً بالحب بل عقلاً ناطقاً بالحكمة والبلاغة وأثبت قدرتها على العطاء كمخلوق إنساني متكامل فيما إذا مُزِج عقلها مع قلبها.

إلى أن جاءت الشاعرة سعاد الصباح واحدة من تلك الكواكب الذين شعوا في سماء الأدب. ووجدت في ذكائها الوقاد، وموهبتها الفذة، وإنسانيتها العارمة، وقلمها السيال أمضى سلاحاً يمكن أن تنفذ به إلى ظلمة العقول، وكهوف التقاليد البالية، وتصلب شرايين الحيلة في القلوب، فتنير الظلمة، وترمم التقاليد البالية وتزرع بذور الخير كي تُزيل المفهوم الخاطئ عن المرأة، وتُغيير في تراث الشعر العربي الذي يعتبر المرأة باباً للغزل، ومادة للوصف وحاجة للتصنيع، فيتفنن بجمالها، وسحرها لدرجة الوضاعة أحياناً ويضعها في قمة المثالية الصوفية أحيانا أخرى، لكنها في كلتا الحالتين كانت أداة للتسلية ومخلوقاً ضعيفاً طوع إراداتهم. وشهرت سلاحها في وجه كل التقليديين الذين اعتبروا المرأة أداة لتربية الأطفال، وإدارة المنزل، وإشباع رغبات الزوج في النهاية. ووضعها في المجتمع لا يحيد عن وضع العبيد.

فكان الاتجاه الرومانسي الإيجابي الذي يتجه دائماً لتحقيق الذات وإثبات الوجود خير شاهد لتفجير طاقات المرأة. وملكاتها

العقلية والعاطفية. وقد أبرزت ذلك من خلال قصائدها المختلفة الاتجاهات. هذا وترى الشاعرة من الوجه الاقتصادي والتنموي الذي هو من صميم دراستها، إن لتحرير المرأة إقتصادياً دوراً هاماً في رفع مستوى التقدم والحضارة ودفع عجلة التنمية إلى الأمام في المجتمع، فعندما تأخذ المرأة حريتها مساوية لحرية الرجل لابد وأن تساهم بكل الأعمال التي يقوم بها الرجل وتصبح شريكة له بكل شيء من حيث المسؤوليات والواجبات (وقد شهدت نهاية القرن العشرين شواهد ثابتة وأرقاماً قياسية على ذلك) وأبرزت لنا بعض القصائد ما تملكه المرأة من إحساس مرهف، ووعي وإدراك لمعنى المسؤولية، وثقة بالنفس لا حدود لها، وعقلٍ حكيمٍ في معالجة كل مشاكل الحياة رغم مرارتها وقسوتها التي لا ترحم، وتخطيها كل المطبات المحفورة لها عاطفياً واجتماعياً، بإصرار عنيف على تحقيق هدفها السامي. حيث لم تعد المرأة تبحث عن السحر، والتنازلات، والإغراء الجسدي الذي ألبسوه لها، والتبعية. لا بل لم تعد تحترم الرجل الذي يبحث عن هذه الصفات، لأنها تدل على تفاهته، وتصلبه وتعلقه بالسلفية المتحجرة، بل تريده رجلاً قوياً حكيماً متحضراً، مثقفاً لا متعلماً يتطور مع زمنه الذي يعيشه. ويلفظ كل الصفات التي تفيده تجاه نظرته للمرأة نظرة الند للند، ويرغب لها كل ما يرغبه لنفسه دون أي شعور بما يميز الرجل عن المرأة في العرف والعادة. وهناك قولٌ: (إن علمت رجلاً فأنت تثقف فرداً، وإذا علمت إمرأة فإنك تثقف مجتمعاً) لما للمرأة من شأن عظيم في تربية النشئ الجديد الذي يحبو على ذراعها وينمو ويورق بين أحضانها ومن أنفاسها..

في نهاية النهاية أرى مع الشاعرة إن أبسط التـــهم يمكـــن أن يوجهها المجتمع المتخلف إلى الأديبة، التي تفصح عن مكامن الوعي واللاوعي داخل الأنثى، عندما تطالب بحقها كما تُطـــالب بواجبـــها. إنها غانية أو متـــــهورة أو... الـــخ. وكـــأن الصـــدق، والجـــرأة، والصراحة، والإستقامة والوفاء، والإخلاص، والوعـــــي، والادراك، والروية، والحكمة، والمنطق، والعلم، والقوة، كلها صفـــات الغانيـــة اللعوب.

والخنوع، والاذلال، والخداع، والنفاق، والغبـــــاء، والتفاهـــة، والسطحية، والجهل والضعف، والإستكانة، والعالة، صفات المـــــرأة النموذجية التي يرغب بها الرجل التقليدي والمجتمع المتخلف فـــــهو يحارب الأولى بحجة مخالفة التقاليد والعادات والخروج عن دائـــــرة المألوف التي يرغب بدوامها. ويحارب الثانية بحجة إفساد المجتمـــع وأيضاً الخروج عن المألوف. والثانية دائماً وأبداً هي مـــــن صنـــع المجتمع يصنعها ويحاربها. فكيف؟؟!!..

الحس القومي والوطني

لا شك إن الأدب الوطني والقومي همـــا الهويـــة الشـــخصية للأديب أكان شاعراً أم أديباً كاتباً أم فناناً لما فيه من حضارة فكريـــة وفنية تربط الكاتب أو الفنان بجذوره وتراب وطنه الذي ترعرع بين حباته ونما من دفء شمسه، رغم إنه يختلف بين عصر وآخر وبين مجتمع وآخر.

قد يأخذ الشاعر اتجاهاً معيناً، يُبْرِز من خلاله مكامن إبداعـــه وجوهر مكنونه، يُلبِسه لشـــعره مثـــل الكلاســـيكية، والرومانســـية، والواقعية، والرمزية الحديثة. إلا أنه لا يستطيع التخلي عـــن الأدب الوطني والقومي لما له من رباط وثيق بين الكاتب وهويته الشخصية والأحداث التي تجري حوله ضمن الوطن. وإن حدث وتقوقع الشاعر في زاوية ضيقة وترفع عن أحداث وسياسة وطنه وقومـــه متخـــذاً العزلة منهجاً قدسياً له، فإن قصائده تبقى مجهولة النسب لا حركـــة فيها ولا حياة، لا لون لها ولا عظمه، لا إبداع ولا فن خالية مـــن دم الحضارة التي تغذي حركة التطور وإثبات الوجود وبالتالي يضيـــع الشاعر ويغمرهُ النسيان لعدم ارتباطه بجذور تحميه وتدل عنه.

فالأدب الوطني والقومي مرآة يعكس فيها الشاعر آلام مجتمعه وآماله، تقدمه وإحباطه إيجابياته وسلبياته، حضارته وتخلفه، ثقافتـــه وجهله إذن هو مرآة للمجتمع وبنفس الدرجة على المجتمع. فـــالفن، والأدب والشعر وطني وقومي بالفطرة ومن البديهي أن ترتبط كـــل أمة بأديب وشاعر وفنان قومي أو أكثر يتألم لألمـــها، يتنفـــس مـــن رئتها، يلبس حلتها، يبلور طبيعتها، يجسد أحلامها وآمالها، يصـــور أحداثها وأزماتها، يثور معها ويهدأ معها وبقدر مـــا يرتبـــط بأمتـــه

ووطنه يسمو بإبداعه، لأن الإبداع هو الصدق في التصوير. والإحساس بالشعور، ويظل مثل هؤلاء نجوماً مضيئة في سماء العالم كل باسم وطنه وقومه. وكثيرون من الأدباء والفنانين والشعراء الذين خلدوا أوطانهم بأسمائهم فمثلاً عندما تذكر اسم (دانتي) لابد أن نذكر اسم إيطاليا بكل ما قدمه عن حضارتها وثرائها وشخصيتها المتميزة، كذلك شكسبير في إنكلترا، وتولوستوي في روسيا الذي يجسد لنا حقبة من زمنه تبقى مدرسة على مر العصور. وغوته في ألمانيا. كذلك أحمد شوقي وطه حسين في مصر وآخرين من الدول العربية الذين صوروا أحداث وطنهم بأحرف من الدم واللهب ونذروا أنفسهم وقلمهم للأدب الوطني والقومي ولاقوا حتفهم نتيجة ارتباطهم بالأرض، وصدق أقلامهم.

وإذا تكلمنا عن الشعر تحديداً. فإن الشعر القومي لا يخضع لأي شروط قد يختلف باختلاف الزمان والمكان، والأحداث. والشاعر الفذ هو الذي يصور الأحداث البارزة بكل سلبياتها وإيجابياتها. لما للشاعر من إلهام، ونباهة، وذكاء تجعله يرى الأشياء بمنظار خاص ويجسد الأحداث بقالب موشى يلفت الأنظار ويُثير الحماس في نفوس القُراء. ويستطيع كل من يقرأه أن يفهمه ويتذوقه في أي مكان وزمان من العالم. لأنه مهما إختلفت العادات والتقاليد والمفاهيم والطبقات الاجتماعية والتكوينات الاقتصادية والسياسية والنفسية بين البشر يبقى هناك رابط يجمعهم ويشدهم بعضهم إلى بعض هو الرابط الإنساني فكلنا بشر نملك أحاسيس واحدة وحتى وطينة واحدة. وبالرغم من الثورة الحضارية المميزة والتكنولوجيا التي إجتاحت العالم المعاصر ورغم التشابه في أسلوب الحياة بين

قارة وأخرى، والتيار المعاصر الذي صبغ كل المراكز الحضارية والثقافية بطابع مميز إلى حد ما... إلا أن كل هذه العوامل لم تستطع أن تمحوا قومية الأدب. ولا يزال كل أديب ينبض بروح قوميته ويحتفظ باسلوبه المحلي والقومي المميز. فالشعر هو انفعال مع الأحداث تأثراً وتأثيراً في أبعاد وحوادث قومه ومن المستحيل أن ينفعل الشاعر بأحداث قومية أخرى لا يعيش أحداثها وينصهر معها بيومه وساعته، بفرحه وحزنه، بأمنه وخوفه، وإلا لكان شعره استعارة وانسجاماً بالشكل أو التقليد. ولابد لكل استعارة من لفظ منطقي ونهاية حتمية. ومن المُحال استيراد أو اقتباس الحس القومي خارج حدود الوطن والأرض. لأن المعايشة هي قمة الإبداع الوطني والاستيعاب في التحليل العميق والعريض واستقراء للأحداث المقبلة من خلال الرؤيا المستقبلية للشاعر.

من هؤلاء الذين شعوا في سماء وطنهم الشاعرة سعاد الصباح من القطر الكويتي الشقيق التي أثارتها أزمة الوطن، وحرقتها أنة التراب، فأبدعت في الشعر القومي، رسمت فأجادت في تسليط الضوء على سر التخلف الحضاري والتفكك القومي العربي.

فبدأت تتهم المثقفين والشعراء بالزيف، والانتهازية، والرضوخ للأمواج المتلاطمة، واللعب على حبال الأقوى، في حين يجب أن يكونوا المنارة التي تضيء ظلمات العقول ودروب الأمل، وتزيل تراكمات الصدأ وعفن النفوس المريضة، وتقتل جشع الطامعين وتُشير بيد من حديد إلى مكان الخطأ، ويرتفع صوتهم مجلجلاً بالحق الذي غطاه النفاق والخداع والكذب. فماذا يكون مصير الوطن وقد خفت ضوء الشموع، وصمت صوت الحق وغار في الضباب الذي

غلف العقول والعيون، والجشع الذي جثا فوق الأفئدة والجيوب.

من هذا الواقع المرير تطالعنا الشاعرة بابتكارات فريدة لإستراتيجية تحمل الوطن العربي من عصور الظلام والتخلف والكراهية والحقد إلى عالم الحضارة والرقي الفكري والابتعاد عن الأنا والذات الضيقة وتعمل بمقولة (إما أن نكون أو لا نكون). إصرار وجرأة عناد وتحدٍ قد يبدو هذا صعب المنال عسير التحقيق لكنه لا مستحيل أمام إرادة الشعوب. فإما أن نزلل الصعاب ونقهر المستحيل ونثبت وجودنا في هذه البقعة من الأرض أو نتخاذل أمام الأزمات ثم نستكين للأقدار وبالتالي لا نكون. وتكون حتمية المصير هي الاندثار والتلاشي في وقت قصير ولا ينفع فيه الندم.

ولقد أكدت الشاعرة من خلال الكلمة على جدوى فعل الكلمة من يد شاعر ملتهب الحماس قوي العزيمة جريء الموقف يواجه الحقيقة بكل قسوتها ومرارتها يوقد النار بابتسامة الأمل ويشعل البارود بحبر القلم. ففي قصائدها تحض على الجهاد، وتضيء دروب المعركة بكلمات لاهبة تتخلى فيها عن أسلوبها الرومانسي ليحل محله الكلمة الجادة الصاعقة لأن ما يجري على أرض الوطن من الصراعات والأطماع والتمزقات والنكسات، وشيوع شريعة الغاب (القوي يأكل الضعيف) ما يجعل الوطن في طريق النهاية والاندثار.

لكن شعرها القومي لا يقل إبداعاً – بإسلوب آخر ابتدعته أناملها – عن أي قائد معركة أو حاكم قد يدير دفة الحكم في ساحة الوغى. بالرغم من اختلاف الأوزان الشعرية والبحور استخدمت القوافي الموحدة لقصائد عديدة وهذا ما جعلها تنأى عن استخدام

البحور المركبة واستخدامها الأوزان التي يسهل على القارئ استيعابها والإحساس بها مثل الرمل، والمتدارك والخفيف فهي بحور أكثر طواعية للحركة الشعرية. فهم الشاعرة الوحيد هو إيصال مضمونها الفكري، وكشف الحقائق وإزالة الشوائب التي جثت فوق أقلام ونفوس أبناء الوطن.

هي لاتريد أن تقدم لنا قالباً من الكلمات المركبة المعقدة بأوزان واحدة. كما يفعل بعض الشعراء الذين يسعون وراء الانتاج الكمي محاطاً بالغموض والضبابية وتحتاج إلى مترجمين للوصول إلى الهدف الذي يبغيه الشاعر. ظناً منهم بأنه أسلوب حضاري. غير مدركين أن الوحدة الفنية لا تتنافى مع الوضوح والقدرة على نقل المغزى المراد من القصيدة إلى قلب وإحساس القارئ. وغالباً ما يكون وراء ذلك الغموض. عدم القدرة على تطويع الكلمة والمعنى والقافية على ابداع خلاق كما نراه عند الشاعرة سعاد الصباح. وهذا ما يجعل القارئ يمل قراءة مثل تلك الأشعار وإن كانت في قالب مسبوك مقفى وسرعان ما ينبذها.

سُئلت الشاعرة سعاد الصباح في إحدى المجلات. من أنتِ...؟ ما رؤيتك للحياة والفن؟ وماذا يعكس الشعر والإبداع منكِ؟ فأجابت:

"أنا امرأة عربية خليجية، تحاول بالكلمة وبالسلوك أن تسهم في إسعاد الإنسان، وزرع بذرة حب صغيرة في أرض البشر. إن حلمي منذ طفولتي هو أن أكون جدولاً صغيراً يفيض في فصل الربيع، ويسقي الأعشاب والأزهار، والنباتات الصغيرة التي تتجمع على ضفافه".

لم تكن الشاعرة جدولاً في فصل الربيع فحسب. بل كانت

جدولاً في فصل الخريف غزير التدفق كثير التشعبات، انبجس من قلب الصحراء ليروي النفوس الظامئة للحياة والفاقدة للشرايين. لذلك تدفق شعرها القومي ندي الألفاظ مشتعل المعاني لاهب الوقع يثير في النفس غيرة عمياء للدفاع عن كل حبة تراب وطنية وقومية ويحرك كل العواطف السامية للتشبث بأرض واسم الوطن. فيتحول كل مواطن إلى دبابة ومدفع وكل طفل إلى قنبلة تنفجر في يد من يلامس موطئ قدمه.

بدأت قصائد الحس القومي عند الشاعرة سعاد الصباح منذ عام 1971، فيه تجسيد للجذور القومية الأصيلة، فيه نداء لصحوة الضمير الذي ران عليه الثبات من تدفق الذهب الأسود، فيه وخزة للحض على الجهاد وترك التواكل والكسل، فالقيمة الحقيقية للإنسان هي بما يُنتجه ويصنعه، هي بارتباطه بجذور أرضه وأعماق وطنه. بما يقدمه لوطنه من تضحيات وإبداع وبما يُسهم به في بناء الوطن ودفع عجلته لمصاف الدول الأرقى في التقدم والازدهار.. وليس الافتخار والتمتع بما وهبته له الطبيعة في أرض الوطن. فهبة الله لم تكن مجالاً للفخر إلا إذا استغلها الإنسان بالشكل الأمثل وحافظ عليها من الضياع والاغتصاب. من هنا يبرز دور الإنسان في الحفاظ على شخصيته من خلال قوميته ووطنه ومقدار ما يقدمه للاثنين:

في بلادي... في معاني أرض أجدادي الجميلة
في البوادي... بعد أجيال من الصفو طويلة
ذات يوم هبط الساحر من ماء السماء
فكسا بالذهب الأسود أرض الصحراء
ورآهم القوم... واستغرقهم هذا البريق

فتناسوا أنهم جاؤوا من البيت العتيق
إنهم جاؤوا وفي جعبتهم خير عتاد
من تقاليد، وأخلاق، وحب للجهاد
وتناسوا لقمة العيش يذكيها العرق
يالأجدادي... وكم أودى بهم طول الطريق
في سبيل المجد، ما بين شهيد وغريق
يالهم، واللؤلؤ المكنون في جوف البحار

إبحار في جذور المجد والعزة والعمل الدؤوب وما عاناه الأجداد حتى وصلوا إلى قمة السعادة التي غمرتهم، أما الأحفاد الذين ظهر لهم الذهب الأسود وحولهم إلى تابعين للمال عبيد منفذين لرغبات جمة قوامها الإستكانة والخنوع والكسل والتسلط. ضياع للشهامة التي كانت توقظ نار الغيرة فيدافع الكبير عن الصغير والقوي عن الضعيف. وكان الجميع يداً واحدة وروحاً واحدة في جسد واحد (أي أرض ووطن واحد) نداء من الشاعرة ووخزة لذاك الضمير الذي استكان ولتلك المروءة التي رقدت تحت بريق الذهب الذي جاء هبة من الله. لكنه سبب في فشل الجيل الجديد لطلب العمل والمثابرة على أصالة جذور الأجداد لتتابع ذاك النداء.

لم يزل يسأل عنهم، كل ليل ونهار
لم يزل في شعب المرجان حباً دفين
في قرار لم تطأه قدمٌ منذ سنين
هاتفاً: ماذا دهاكم يا بني الجيل الجديد؟..
فقتعتم بالرغيفِ والسهل والعيش البليد
وقعدتم عن طِلابي، وزهدتم في حياضي

أترون الذهب الأسود أصفى من بياضي؟.
في بـلادي.. من مغاني أرض أجدادي الجميلة
لـي حكايات، وآيات، وأبـيات طويـلة
سوف يروي سرّها الأطفال لـلأجيـال عني
وعن اللؤلؤ والمرجان في العـهد الأغن
وعن الغواص لا يعرف ما لـون الهموم
وهو يهوي في دجى البحر ويصطادُ النجوم
ليسويـها عقوداً في صدور الغانـيات
تمـلأ الأيـام نوراً وتُضيء الـذكريات
هكذا ينتحر الخير وتبقى الذكريات
يـازمان اللؤلؤ الحر... زمان الحُرّ فات

حسرة ولوعة من الشاعرة على ضياع الخير وتقاعس الجيـل. تضم صوتها لصوت اللؤلؤ الأبيض الذي يجثو في هدوء بين حبـات الرمال في قاع البحر. ينتظر من سيغوص إليه ويسوغ منـه قـلادة لعنق الحبيبة، من سيوقظه من غفوة الزمان الذي نسيه تحت المـاء. من؟ ومن؟ بعد أن تبخر الحب في أتون المال المتدفق من البـترول. وتلاشت الأحلام في ظل الواقع الرغيد والرفاهيـة العميـاء. لكـن الشاعرة لم تزل تتمسك بكل قوتها بجذور الأجداد النقية الشُـجاعة. التي تسري بها دماء العزة والكرامة والمحبة الصادقـة والأصالـة وحب الارض بكل مافيها من خبرات وفلذات. وتحاول إعادة تلـك الدماء للأجيال. ثم تعرض لهم تلك المآثر بعرض شيق بنّاء تحثـهم من خلاله على العمل والجد والجهاد وحب الأرض والوطن. فـهو ليس – بترول ومال – إنه أغلى من الأكباد وفيه الكثير الكثير مـن

الدرر.

ثم تنتقل إلى قصيدة أخرى تصف فيها ألم الغربة عن الوطن ففي الغربة موت بطيء تتحول فيه ضربات القلب إلى نزف موجع. ويأس مخيف، يعشش الدمار في النفس ويتحول إلى خراب مهجور وتصبح كل الأشياء بلا لون ولا طعم ولا حياة، يموت الجمال وتغرق الآمال والأحلام في بحر الدموع، حتى أشياؤها ضاقت زرعاً بتلك الوحدة القاتلة فطلبت النجدة بأن تعود للوطن الدافئ الحنون إذ تقول:

سائحة أنا... أجوب في الورى كل فضاء
ولي فؤاد نازف... بعدك شلال دماء
والعنكبوت ناسج في داخلي بيت شقاء
حقيبتي مُرهقة تململت من العناء
وبهتت ألوانها وأصبحت بلا رواء
تسألني: متى نعود للحنان والوفاء؟.

ثم تتابع في وصف البلد الذي أمته، كيف وجدته بؤرة حارقة انعدمت فيها الحياة فالغلاء خانق والحرارة قاتلة. وأهلها أصنام يتحركون قُتِل الحب في نفوسهم وجفت الإنسانية من عروقهم ومات الربيع في حياتهم فأصبحت جدباء صحراء قاتلة قاحلة. يلعب بها المال (الدولار) ويحرك الأصنام على هواه. ويحولهم إلى عبيد أزلاء. لا يعرفون معنى الحياة. عشرون يوماً في هذه البلد حسبتهم الشاعرة سنوات من السجن والموت البطيء. بعد أن اختنق الأمل ومات الرجاء وانعدم الجمال والحب والوداد والوفاء. كل هذه الأشياء افتقدتها الشاعرة لأنها تعيشها في وطنها الحبيب فالوطن الأم

والروح والغذاء والدواء والسعادة والأمل والأمن والقـــوة والمتعـــة وعزة النفس وكل الحياة لتبقى مع الرحلة.

في بلد كأنه جهنم بـلا هـواء
كأنه يقبسُ من قلبي وقلبك اصطِلاء
وأهله قلوبـهم مـن كل الفةِ خِواء
كأن في أعماقهم مجـاهـلاً مـن الشتاء
أعماهم الدولار عن معنى الحياة والغذاء
فأصبحوا شرائِماً من العبيد والإماء..
عشرون يوماً ها هنا.. عواطفي بـلا غذاء
أعيشها في غربـتي بلا منى ولا رجاء
وأنـتِ يـا قاهرتي الحسناء... يـا أغلى دعاء..
هل تشهدين أدمعي وتحملين لـي الرثاء؟..
هل تلمحين في قصائـدي مآتم المساء؟.
هنا الجبال الخضر في عيني سوداء الرداء
والمـدن الرحبة تبدو لي كـأنها خـلاء
والبحر لا يجري، ولا يخطر في مجراه ماء.
فكل شيء مائـل الألـوان... مشلول الضياء

تعود للرومانسية في الحنين إلى أرض الوطن وفؤاد الحبيـــب داخله. تعود لمفردات الطبيعة الزاخرة بالعطاء. تقطف الحلـــم مـــن ضوء القمر، وتتجرع الوحدة في صفاء السماء وقطاف الغرام. أتون تنصهر فيه لواعج الشوق والحنين ثم تتطاير عبر الأثير تحمل كـــل معاني الحب والأشواق.

تعانق الليل، تسامر السحر، تقطف من همسات الـــورود أرق

كلمات الغزل، تحيك منها أحرفاً من لهب الوجد الذي يضطرم في الغربة عن الحبيب والوطن. صورة فاتنة لحب عارم وحنين قاتل ولهبُ يذيب الحجر ويؤجج المشاعر والأشواق في نفس القارئ فيشعر بالنشوة وينفعل ويتفاعل مع الموقف:

ويصحو على الأفق ضوء القمر
وتُزهي السماء بأغلى الدرر
وتصفو الحياة لأهل الهوى
ويحلو لهم في الليالي السهر
ويهتاجني الشوق في وحدتي
فأبكي، وأنت بعيد السفر
على وحدتي في بلاد الشمال
بلاد الضباب.. بلاد المطر
أظل أناجيك في غربتي
إلى أن يطل شعاع السحر
ويشدو فؤادي بشعر الحنين
ولولا الهوى ما شدا... ولا شَعَرْ
أتسمعني أقطف الكلمات
لنجواك من همسات الزهر
وفي خافقي موقد من هواك
يثور ويرقص فيه الشرر
تسابق أشواقي أحرفي
بشجو يفتت قلب الحجر
غداً يا حبيبي أعود إليك

ونجني المنى تحت ضوء القمر

بتلك القصيدة جذوة من اللهب أوقدتـــها الكلمـــات والتعـــابير والتراكيب فأحرقت الورق ثم نسجت سدة للحب والحنين من شرايين ودم، لنعد إلى التراكيب (يصحو الأفق، تزهى السماء، تصفو الحياة، يحلو السهر، بعدها يجتاحني الشوق، فأبكي علـــى وحدتـــي، أظـــل أناجيك، يطل شعاع السحر، يشدو فؤادي، أتسمعني أقطف الكلمـــات، همسات الزهر، في خافقي موقده يثور ويرقص، تســـابق أشـــواقي أحرفي، يشجو يفتت قلب الحجر) – انعدام للحياة بعيداً عن الوطـــن والحبيب. بعيداً عن الحب والألفة، فالحياة بكل ما فيها حب وهويـــة يشترك فيها ثلاثة: الوطن، والرجل والمرأة.

لم يقتصر إحساسها القومي على زمن الإجتياح العراقي بـــل سبقت ذلك بالفطرة والنظرة الثاقبة والرؤيا والتحليل المنطقي للأمور التي تجري على الســـاحة العربية وقد برز الحس القومي منذ عـــام 1980. وأود أن أذكر قصيدة (ارفعي المشعل) من ديوان إليك ياولدي عام 1982 أي قبل الاجتياح العراقي لأبرز للقارئ مدى بعد النظـــر والاستقراء الذي تتمتع به الشاعرة سعاد الصباح. فها هي تصور لنا مدى التدخل الأجنبي الذي يسري ضمـــن أوردة الكســـل والخنـــوع والتواكل الذي يلف أبناء الكويت ونومهم في ثبات الغفلة لنبق معـــها وهي تجند الحس الوطني لإيقاظ الغافلين:

كلما عدت أراني، في حمى أهلي غريبة.
وهم مثلي أغراب... على أرض سليبة
نحن أمسينا مع الأغنام في أرض بلادي
والكلاب السود ترعى، والخنازير تنادي

ربما تأكلنا يوماً... وباسم المدينة.
يسقط الوعي... ويغدو الشعب للغازي ضحية
سيقولون: هنا... كانت... كويت وإمارة..
رفعت في البحر، قبل البر، أعلام الحضارة
شقت الريح، وأجرت في المحيطات السفينة
قبل أن ينشأ ملك، وملوك، ومدينة
ثم غرّتهم أباطيل الحضارات الجديدة.
فتناسوا أنهم إرث التقاليد القيدة...

لم تكن معركة العراق قد بدت في الأفق. فقد كان العراق ابن الكويت المدلل والأمل المنشود والساعد القوي للكويت. لكنها قرأت الدلالات التي تجري على الساحة العربية، استقرأت فصول التمثيلية قبل أحداث لبنان، وشعرت بإحساسها المرهف وعبقريتها الفذة أنّ الفصول نفسها تتوالى على أرض الكويت فأطلقت صرخة دوت في قومها علها توقظ النيام. وتحرك الجماد رغم معرفتها الأكيدة بأنها تنادي في واد وتنفخ في قربة مقطوعة.. فهم صم لا يسمعون ومقيدون لا يتحركون لنتابع:

إنهضوا.. لا النار والبترول في أيدٍ أمينة
لا... ولا أنتم على وعي بأطماع دفينة
واجعلوا أيديكم درعاً على الحق أمينة
يا كويت، يا بلادي، يا حياتي، يا مصيري
ها أنا أشعر أني، ضلّ في الأرض مسيري
فخذي العبرة مني... وامسحي زيف الدهان
وأفيقي للعوالي، "قبل أن يمضي الأوان"

لم يكن بحسبان أي إنسان وحتى الشاعرة بـــأن مـــا أصـــاب الكويت في 1990

لكن قصيدتها تتحول إلى واقع حقيقي وكأن القصيدة كُتبت بعد احداث الإجتياح. هذا ما يؤكد على ان الشاعر يرى ويحلل بـــأعين غير التي يرى فيها بقية الناس. هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤكـد أن الأدب الوطني هو مرآة صادقة تعكـــس للجمـــاهير أدق خلايـــا الوطن وإحساساً عميقاً يحسه الشاعر أو الكاتب قبل وقوع الخطر.

لذلك نرى أن الشاعرة سعاد الصبـــاح كـــانت أكـــثر يقظـــة واستشعاراً بآلية الخطر فرسمت دوائر سوداء حول نقاط الضعـــف عند أهل الكويت ونفخت روح الحماس في الشباب الصاعد تحثـــهم على السير في ركب الحضارة قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم ولا تُسمع فيه الآهات. عودة إلى الجذور المتينة القوية وإنطلاقة ثابتـــة نحو الصعود والتقدم:

هذه الأيام... لا تعرف معنى للسبات
والذي يغفل، تطويه رياح الذكريات
حركي فيك الشباب الحر... نحو الأمنيات
ليس في الدنيا ثبات... بل حياة أو ممات
إرجعي ماضيك الخالد، حلو النغمات
وارفعي في العرب المشعل.. تحلو الأمسيات..

في قصيدة فتنة في 1982 تصور الشاعرة صـــوراً ومعـــاني لأحداث الإجتياح. ثم تضخم الصورة لتبدو مخيفة مرعية ويدب الهلع في قلوب أبناء الوطن ليهبوا إلى اليقظة ويقوموا من السبات تتسـلل من عمق الصراع وبشفافية مذهلة: كيف تسرب إلينا الطغاة، وبدؤوا

يعيثون فساداً ويتحللون بُؤراً فاسدة وأنتم خاضعون لـــهم مـــهيضو الجناح. كيف طمعت الفئة الباغية بخيرات وثروات ومواقع الوطـــن العربي ككل بشكل عام والكويت بشكل خاص. ثم يبرز بعـــدٌ آخـــر للقصيدة إذا وضعت في زمن الكارثة. إنها تجسد الأصالة والـــتراث العريق الشجاع الذي لا تقتله المحن، ولا يصهره الزمن، إنها ســـلاح آخر لتوحيد الدم العربي والليالي الجميلة، والأحداث الملأى بـــالخير والعافية زمن الأجداد وركوب الأمواج العاتية:

فهذا الحمى درة للخليج
وتاج على رأسه العالية
فصونوه من عثرات النفوس
ومن طمع الفئة الباغية.

إذن القصيدة كانت قبل وقوع الحدث. لكن أحداث لبنان كـــانت الواقع والمؤشر لنفس الشاعرة فقد آلمها لبنان الجريح الـــذي يئـــن بالألم ويغرق يوماً بعد يوم بالدماء والفتن والرعب والحـــزن تأكلـــه نيران الطاغية الطامعين وتتلذذ بشواء أهله بنار التفرقـــة والانتقـــام لنتابع:

أيا وطني... أنا في غربتي...
أحن إلى أرضك النائية
أراها على البعد طيّ الفؤاد
كأنك ما بين أحضانيه..
وأبكي.. وأجزع... خوفاً عليك
من الفتنة المرة الطاغيه..
فمأساة لبنان لم تزل

تلوح بألوانها الفانية
فإياك إياك... أن يخدعوك
وأن يدفعوك إلى الهاوية...

ثم تنتقل الشاعرة بعد الإجتياح المرعب اللئيم الفظ القذر الذي ظهر لهم في أبشع وأشنع الصور بين ليلة وضُحاها. خرج لهم العملاق الطفل المدلل. كشر عن أنياب الخداع والطمع واستيقظ النائمون الغافلون في أرائك الحرير على بشاعة الموقف وهم يظنون أنه كابوس وحسب. أين كانوا حين صموا آذانهم عن سماع الحق بصرخات الشاعرة. وطمسوا أعينهم عن رؤية آلام الآخرين. وتحليل الواقع الذي يلف العالم العربي.

لقد حملت صرخاتها كل معاني القوة والأصالة، وجرأة التحليل والطرح، وصوت الحق لاحتمالات المستقبل، ومعنى التقدم والحضارة، وترك التواكل والكسل، واحترام النفس البشرية بالجد والعمل، جاء صوتها من عمق التاريخ ليفتح ثغرة أمل في جدار الحاضر الأصم، الجدار الاسمنتي الذي ربض فوق عقول وقلوب الناس أبناء وطنها.. إنها لا تملك إلا سلاح الكلمة وصوتها المبحوح لكنها لم تيأس ولم تتوانَ ولم تضعف. بل جاءت قصائدها العديدة مشحونة بالقومية والوطنية تارة وبالتمجيد والتباهي بالأجداد تارة أخرى. وإلقاء الضوء على الماضي القديم المضيء. والحاضر الفاسد المتواكل. فنراها في قصيدة (جسمي نخلة تشرب من شط العرب) تصنع من الكلمة وسادة هناء وسعادة الماضي. وطلقة بندقية، وحد سيف بتار، وهذه أرضية تجوب العالم لكن ضمن أسلوب الرومانسية التي هي من خصائص الشوق والحنين والهيام

في زمن الهدوء والأمان. وهي ملحمة ثورية تحمل في طياتها حد سيف بتّار توقظ النيام وتفرش المذاق المر ضمن لحن يدخل إلى الآذان الصم والقلوب المتحجرة. دون أن يثير أي ألم أو ازعاج تحاول إيقاظ الشعور بكل حنان الكلمة وسمو الرومانسية لتبقى مع جسم النخلة:

إنني بنت الكويت
بنت هذا الشاطئ النائم فوق الرمل
كالظبي الجميل
في عيوني تتلاقى.
أنجم الليل، وأشجار النخيل
من هنا... أبحر أجدادي جميعاً
ثم عادوا... يحملون المستحيل

بعد إضاءات التاريخ عن الأجداد تتساءل الشاعرة بلغة التعجب واقرار الواقع الأصيل. ثم تصرّ على ذاك الإنتماء الذي لن تتخلى عنه ولو عم الخراب. إن الأمل سيشرق من تحت الأنقاض البالية طالما تحتها بذور حية عريقة:

هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب؟.
وإن جسمي نخلة تشرب من بحر العرب
وعلى صفحة نفسي ارتسمت
كل أخطاء، وأحزان، وآمال، العرب.
سوف أبقى دائماً
أنتظر المهدي يأتينا
وفي عينيه عصفور يغني

وقـمـر

وتـباشير مطر...

سوف أبـقى دائـماً

أبحث عن صفصافة عن نجمة

عن جنة خلف السراب

سوف أبـقى دائـماً

أنتظر الورد الذي

يطلع من تحت الخراب

نرى في هذه القصيدة أن الشاعرة لم تزل تستعمل مفـــردات الطبيعة وتحولها إلى معاني وهاجة في خدمـــة الوطنيـــة والقوميـــة والأصالة وقد استعملتها في إيقاظ الحس القومي كما تستعملها فـــي زمن الهدوء والسلم والحب. فالشاطئ النائم والظبي الجميل، وفـــي العيون تتلاقى أنجم الليل وأشجار النخيل، جسمي نخلة تشرب مـــن بحر العرب، أنتظر المهدي أنتظر الورد من تحت الخـــراب. كلـــها تعابير ذات مدلول ومعنى يدل على الأصالة والثبات والقوة. والأمـل الذي سيبرق من تحت الخراب الذي توقعته الشاعرة من جراء انبثاق البترول الأسود وحرض على الكسل وتلبد الأذهان لنبق معها وهـــي تصف لنا حالة الخنوع الذي ران على عقول الناس مـــن البـــترول، ليس البترول الذي هو هبة الله هو الحضارة والتقدم، وليس المال هو الذي يصنع الإنسان والثقافة. ثم توجه الآن نقمتها العارمة، وثـــورة غضبها على الشعراء والأمراء، والحكام فتتساءل قبـــل أن يضيـــق السؤال:

يا زمان القبح.. من أين يجيء المبدعون؟..

في بـلادي

وعلى أي صليب من دموع يولدون

إعطني شبراً من الأرض يسمى وطناً

ما به مشنقة.. أو مخبرون

إعطني شبراً من الأرض يسمى وطناً

لا تغطيه المنافي والسجون

وصل السيف إلى الحلق

وما زال لدينا شعراء يكتبون

وصل السل إلى العظم

وما زال لدينا شعراء يكذبون

ويقولون على الأوراق، ما لا يفعلون..

إنها شاعرة متميزة ميزتها الجرأة في طرح القضايا القومية. ميزتها أنها أم الإنسانية رغم إنها من العائلة الملكية رغم ذلك لم تنفرد عن مشاكل المجتمع لم تشعر يوماً إنها ذات مكانة تفوح منها العنجهية والارستقراطية. على عكس بعض الشعراء المنحدرين من طبقات إرستقراطية أو غيرها. الذين لم يكن همهم أحداث الوطن وما يجري فيه وحوله. بل كانوا يكرسون الشعر لتكريس الواقع بعاداته وشوائبه والمحافظة عليه.حيث أنهم يعتبرون الثورة قلباً للأصول وقضاء على الهدوء والرتابة في حين ترى سعاد الصباح الكلمة أمضى سلاحاً، وأقوى دفاعاً، وأكثر ضياء فالكلمة التي تعري الحقائق كلمة حق والحق لابد أن ينتصر، ثم تعطي الحماس إذ تدخل إلى الشرايين مع نبض القلب وتثير الانفعالات الإنسانية فإما تثير الغيرة للدفاع عن الكرامة، أو تثير الثورة فيهب المرء للذود عن

حياض الوطن وهكذا. إنها دائماً المرآة الناصعة إذا كانت جريئة صادقة، عميقة، منفعلة، منطقية، إنسانية تنسى الأنا وتتكلم بالجمع، وإذا فصّلنا القصيدة السابقة لرأينا كل هذه الصفات يازمان القبح، أين المبدعون، على أي صليب يولدون، إعطني شبراً يسمى وطناً، ما به مشنقة أو مخبرون، لا تغطيه المنافي والسجون، مازال شعراء يكتبون، وشعراء يكذبون. إن تلك الكلمات هي الصدق بحرفيته، والجرأة بكل ما فيها والحق بكل أبعاده، لماذا يتستر الشعراء على أخطاء الحكام؟ وهم القادرون على إنارة الطريق، وإيقاظ الغافلين. لقد أعمى البترول والمال أعين المسؤولين فأخذو ينامون ملء الجفون والطامعون يتغلغلون. أخذوا يبطشون بيد من حديد بأبناء وطنهم حتى ملؤوا السجون وأصبح كل أخ رقيباً مخبراً على أخيه مقابل حفنة من المال. الغزو الاستعماري ينمو ليسيطر على كل الخيرات وأصحاب الخيرات يتلهون في قتل بعضهم البعض إلى متى؟ ومن أين سيولد المبدعون. أسئلة تسبق وقتها بأجيال لكن سرعان ما حدث ووقع ما كانت تقرأه الشاعرة قبل وقته بزمان. هكذا يكون الشاعر وهذا ما يفعله ولتكن سعاد الصباح قدوة الحق والجرأة والإنسانية لكل الذين يحترفون لغة الشعر.

تعود الشاعرة في قصيدة أخرى لفتح البساط المخملي الذي عاشه الأجداد مليئاً بالكرم والشهامة والقوة وعزة النفس، والهدوء والأمان، حياة ملؤها السعادة والحب، ملؤها الإيثار وحب الخير للناس أجمعين. تحفها الإنسانية فيهرعون لنجدة الضعفاء والمنكوبين ومساندة الفقراء والمحتاجين من الإخوة العرب وغيرهم. إذن هي دعوة تلح فيها على وجدان الشعب الكويتي لتذكره بالأصالة والعراقة

ليواصل التسامح والعطاء وتزرع بذور الأمل بعد الاجتيـــاح تلـــك البذور التي افتقدوها في الرفاهية والنعيم. الآن سيحتاجون لإيقاظـــها من جديد بعد تلك الجريمة الشنعاء إذ تقول:

كـويـت... كـويـت..
مـوانئ أبحر منها الزمانْ
وواحة حب وبر أمانْ
وشعب عظيم
ورب كريم
وأرض يسيّجها العنفوانْ
كـويـت... كـويـت
شواطئ مصقولة كالمرايا
وبحر يوزع كل صباح علينا
ألوف الهدايا
ونـأي أبـي
وابـتسامة أمـي
كـويـت... كـويـت
أشـيـلـك
حيث ذهبت، حجاباً بصدري
أشـيـلـك
برعم ورد، بأعماق شعري
أشـيـلـك
في القلب وشماً عميقاً
لآخـر أيـام عـمـري.

متابعة لنشر خيرات الكويت، ولتحدي الزمـــن، ورومانســية الناس والطبيعة، صور خلابة لاغتسال الشعر والنخـــل فـــي ميـــاه الخليج، تعبير عن الأصالة في النخل والعطاء والكرم وحب الطبيعـة والناس في الشعر (يقطف نجماً ويزرع نخلاً ويخلق فـــي لحظـــات التحدي بلاد) أيضاً لوحة تذكارية تعيد لابن الكويت وللعـــرب قـــوة الإرادة التي تفعل المستحيل بتلك الكلمات تتحـــدى الشـــاعرة كـــل مستحيل وكل عدوان مهما كان وأياً كان:

كـويت... كـويت...
هنا وردة البحر قد أزهرت
وراح ابن ماجد
يقطف نجماً... ويزرع نخلاً
ويخلق في لحظات التحدي بـلاد
هنا الشعر والنخل يغتسلان معاً
في مياه الخليج
كـويت... كـويت...
أحبك... كالشمس تعطين ضوءك للعالمين
أحبك كـالأرض
تعطين قمحك للجائعين
وتـقتسمين الهموم مع الخائفين
وتـقتسمين الجراح مع الثائرين.

ثم تتكلم عن سياسة الكويت بعد بوح من المحبـــة العارمـــة. فالكويت كانت ملاذ كل المحتاجين وموئل لكل العباقرة والمثقفيـــن، ومنارة يهتدي بها كل الضائعين هكذا كانت وهكذا ستبقى كما تناديها

الشاعرة التي هي جزء من تلك الأرض ومن عظمة تلـــك المحبـــة. فالتسامح كريم ومهما عظمت الشدائد يبقى الخير متأصلاً لا يتزعزع ولا يخبو ولن ينضب من جذور أهل الكويت وشمسها وقلبها الكبـــير الذي يحتضن كل محتاج ويسامح كل مخطئ:

كـويت... كـويت..

لحرية الرأي فيك تراث طويل

وطفل المحبة بين ذراعيك طفل جميل

وزرع العروبة فيك قديم... قديم.

كهذا النخيل

فظلي كما كنت قلباً كبيرا

ونجماً مثيرا...

وكوني المنارة للضائعين

وكوني الوسادة للمتعبين

وكوني كأية أم

تعانق أولادها أجمعين

تتابع الشاعرة إصرارها الأكيد على التشبث بكل حبة تـــراب في أرض الكويت وبكل نسمة عليلة تمر في سمائها. تحبـــها بكـــل مافيها بهدوئها وجمالها، صخبها وعيائها، تحبها حتى لو كانت فوهة بركان يغلي. ومهما فعل فيها المتوحشون الذيـــن أشـــعلوا الســـماء والأرض وأحرقوا الذهب الأسود نتيجة الحقد الذي يغلي في دمائهم. والطمع والجشع الذي انفجر من كيانهم... ولذلـــك توحـــد الشـــعب الكويتي وظهر حبه للوطن والأرض والإخوة واستفاق أخـــيراً مـــن كبوته لنتابع:

كـويـت... كـويـت..
أحـب ابـتسامـتك الطـيـبـة.
وإيـقـاع صوتك... إذ تضحكين
أحبك صامتة.. متـعبة..
وأعماق عينيك إذ تحزنين
أحبك في غربـتي وارتـحالي..
أحبك.. رغم حراب المغول
ورغم جيوش الـتـتر
أحبك حين تـكون السماء
مطرزة بالرعود، ومثـقوبة بـالشرر
فـكيف تصيرين أجمل عند اشـتداد الخطر..

ثم تتوالى الصور الرومانسية النازفة المتدفقة لتجسيد عمليـــة اغتيال الوطن (الكويت) وصهره في بوتقة الاحتلال والاستعمار وكم الأفواه، فيبدو الوطن أكثر صلابة وأشد تماسكاً وإصـــراراً وأقـــوى عزيمة وعنفواناً. فقد كان يبدو أنه صيد سهل عظامه هشة، وأمواله كثيرة. لكن الغزاة اصطدموا بجبل من الالفة وسيول من الانســـانية شكلت جميعها سداً منيعاً في وجه الطغاة الذين لم يحســـبوا حســـاباً للالفة والمؤالفة، ولجيران الجنب والأخ البعيد الذين هبـــوا لمســـاندة الشقيقة الكويت. تقف الشاعرة لترسم لنا الإبتسامة الصافيـــة فـــوق جراح تنزف الألم، والقلوب المُحبة في أجساد غطاها الكسل لكنها لم تنس الأصـــول. ترســـم لنـــا الشـــموخ والإبـــاء والتحـــدي حتـــى لو كانوا كما قالت: (عصافير وطيور) أي يميلون للسلام لا حـــرب عندهم ولا فراغاً. ثم تعود لتفتح ذراع الكويت وكل شبر فيها، ليعود

للحنان ويضم كل الأحرار. فالحرية هي الإنسان ولا إنسان بلا حرية. لنراها ترسم.

كويت... كويت...
لقد قرر العالم العربي اغتيال الكلام
وقرر أيضاً
إبادة كل الطيور الجميلة، كل الحمام
ونحن طيور مشردة لا تريد سوى حقها بالكلام
ونحن طيور مثقفة لا تُطيق
غسيل الدماغ.. وكسر العظام
ونحن حروف مقاتلة.
سوف تهزم بالشعر كل عصور الظلام
ويسعدني أن تظل بلادي
ملاذ العصافير من كل جنس
وبيت المغنيّن والشعراء
ويسعدني أن يكون تراب بلادي
مزار البنفسج والشهداء
وسقفاً لمن تركتهم حروب العروبة دون غطاء
ويسعدني أن تظل بلادي جزيرة حرية رائعة
بها الفجر يطلع حين يشاء
بها البحر يهدر حين يشاء
ويسعدني أن تظل بلادي فضاءً رحيباً
ونافذة نستنشق منها الهواء
فعصر المباحث صادر منا السماء

وأدخل للسجن ضوء القمر.

رغم قسوة الموقف وشدة الألم وكآبة صورة الاجتياح الهمجي فإن الأمل والإشراق يطل علينا من نوافذ وكلمات وتعابير الشاعرة. فصورة (جزيرة حرية رائعة، الفجر يطلع حين يشاء، والبحر، قضاء رحيب، نافذة للهواء) كل هذه النوافذ سيطرت على نهاية القصيدة لتعطي دلالات واضحة على انتصار قوانين الطبيعة وعلى كل من يحاول كبتها ووضعها في بوتقة مغلقة. إنتصار للحرية التي هي من أهم قوانين الكون.

لننتقل إلى تفجير الثورة، واندلاع التحدي، بركان هادر يجرف بلا هوادة كل من يحاول الاقتراب من سياج الوطن، استبسال نادر، هدير الحق يعلو فيصل أكباد السماء. الأرض لنا وكل حبة تراب في أرض الوطن هي مسام في أجساد أبنائه، وكل قطرة ماء فيه هي قطرة دم تضخ في قلوب شعبه. فهو الروح والجسد، والملاذ والأمل والأم الحنون والأب الرؤوف، إنه (الوطن) النَفَس الذي يدق في الصدور، والحدقة للعيون، إنه السقف والحجر والأرض والمطر أجزاء تشكلت منها أعضاء أبنائه. وإذا كان الشعراء الرومانسيون يعبرون عن مشاعرهم الجياشة وتأملاتهم الصوفية. بأدوات الطبيعة فإن الشاعرة سعاد الصباح استخدمت نفس الأداة ومزجتها في تراب الوطن والذات البشرية التي تحيا على أرضه ففاحت رائحة التراب دماء ذكية أبية وعاش الوطن في قلب كل مواطن كما يعيش المواطن في قلب الوطن لتبقى مع الإصرار والتحدي والشجاعة والتفاني، مع الصدق والتضحية الذي صهر كل أبناء الوطن وجعله جسداً واحداً وروحاً واحدة:

نحن باقون هنا
هذه الأرض من الماء إلى الماء.. لنا
ومن القلب إلى القلب... لنا
ومن الآه إلى الآه.... لنا
كل دبوس إذا أدمى بلادي
هو في قلبي أنا
نحن باقون هنا
هذه الأرض هي الأم التي ترضعنا
وهي الخيمة، والمعطف، والملجأ
والثوب الذي يسترنا
وهي السقف الذي نأوي إليه
وهي الصدر الذي يدفئنا
وهي الحرف الذي نكتبه
وهي الشعر الذي يكتبنا
كلّما هم أطلقوا سهماً عليها
غاص في قلبي أنا..

إسألوا الشمس والسماء. والأرض والرمل والمـــاء. إســألوا الكون والنخيل والقمح والشجر وضوء القمر، كيف رعانا الله وهدانا الكويت ونحن تعلقنا بكل نسمة سرت في سمانا وبكل حبـــة رمــل تدحرجت على شاطئنا فهي لنا ويعجز مخلوق على أخذ ما وهبه الله:

هذه الأرض التي تدعى الكويت
هبة الله إلينا

ورضاء الأب والأم علينا
كم زرعنا أرضها نخلاً وشعراً
كم شردنا في بواديها صغاراً
ونخلنا رملها شبراً فشبرا
وعلى بللور عينيها جلسنا نتمرى
هذه الأرض التي تدعى الكويت
بيدر القمح الذي يطعمنا
نعمة الرب الذي كرمنا.

لعل الأرض هي الصورة المادية التي تجسد الوطن ودفء الشمس، والنخيل وَالطبيعة تجسد استمرار الحياة وبنيتها السكانية في هذه البقعة. حتى أنها تحولت إلى هوية كُتِبَت مع اسم وميلاد الشاعرة. وقلما نجد شاعراً أو فناناً لم يمتزج بتراب وطنه وقومه في جميع الظروف. لكن شاعرتنا امتزجت به حتى العظام بنعيمه وصفائه بقسوته ورخائه، بإيجابياته وسلبياته، اعتصرت من دمها لتداوي جراحه. وصلبت نفسها لتمسح آهاته فالأرض جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان. لكنها قلب نابض وعين ثاقبة وروح شاردة في قلب وشخصية الشاعر. وقد تساعد المحن وتقلبات الزمن على صقل موهبة الشاعر إلا أن شاعرتنا قد صقلت الكلمة وأبدعت الحرف وأشعلت المعاني حباً وهياماً والتصاقاً بالأرض والوطن. كما اشتعل النفط في أرضه. لنتابع معها في معرفة أجزاء أخرى للكويت امتزجت بأهله تقول:

هذه الأرض التي تدعى الكويت
نحن معجونون في ذراتها..

نحن هذا اللؤلؤ المخبوء في أعماقها
نحن هذا البلح الأحمر من نخلاتها
نحن هذا القمر الغافي في شرفاتها
هذه الأرض التي تدعى الكويت
هي عطر مُبخر في دمنا
ومنارات أضاءت غدنا
وهي قلب آخر من قلبنا
الكويتيون باقون هنا.
وجميع العرب الأشراف باقون هنا
الكويتيون باسم الله... باسم السيف
باسم الأرض، والأطفال، والتاريخ
باقون هنا
نلثم الثغر الذي يلثمنا
نقطع الكف التي تقربنا.

تعلق بالأصل حتى الجذور إصرار على إبراز معدن السكان الكويتيين الداخلية. فهم اللؤلؤ المخبوء، والتمر الأحمر، والقمر الغافي، كلها سمات اتصف بها أهل الكويت وقد كانوا وما يزالون منهل الخير والعطاء لكل الناس. ولكن صاعقة المحنة جعلت الشاعرة تختصر في عطائها، وتحد من مرتادي ذاك النبع. فالغادر والحاقد والجبان لم يعد له مكان على أرض الكويت وجميع الأشراف الآخرين الذي تألموا لألم الكويت، هم وحدهم سيبقون مع الشاعرة على أرضها الحبيبة. فالشعب لا يموت وإن تكالبت عليه يد الشر والبغي.

لم تنل شدة المأساة وهول المصاب من تصميم الشاعرة على الثورة والحث على الجهاد والحض على الانتقام. لا بل زاد هول الكارثة تأجج النار وفورة البركان فاتَّقد العنفوان وعزة النفس والإباء وتحول كل طفل في الكويت إلى جيل شامخ وحربة سيف، لا تطوله دبابة ولا تخترقه طلقة مدفع، لا يكسره الزمان ولا تلويه المحن. صورة من الخيال تجسد لنا عناق المادة والروح في كل حي يعطي دلالات ومعاني يعجز القلم عن وصفها ويثير في نفس القارئ حرارة الحماس الذي يعانق روح الشاعرة المرهفة الحس ويبرز تلاحم وتماسك أبناء الوطن تجاه أي مصاب. وإزاء أي غدار أياً كان ومهما كان... صورة جديدة وفريدة للتحدي الأبدي نسمعه من الشاعرة:

مثل كل الشجر العالي، سنبقى واقفين
سوف نبقى غاضبين
مثلما الأمواج في البحر الكويتي سنبقى غاضبين
أبداً لن تسرقوا منا النهار..
أيها الآتون في الفجر على دبابة
من رأى دبابة تجري حوارا؟.
أبداً لن تجدوا في وطني
نجمة واحدة ترشدكم
نخلة واحدة تذكركم
طفلة واحدة تشكركم
ربما حطمتم أبوابنا.
ربما روعتم أطفالنا

ربما هدمتم البيت الكويتي

جداراً... فجدارا

غير أنا سوف نبقى

مثلما الأشجار تبقى

مثلما الأنهار، والغابات، والوديان

والأنجم تبقى

مثلما حرية الإنسان تبقى

فاسحبوا خنجركم من لحمنا

وأعيدوا لؤلؤ البحر إلينا... والمحارا

وارجعوا من حيث جئتم

عزيمة جبارة تتحدى المستحيل، تعانق المُحال. تركب الأهوال لكنها لن تنحني ولن تيأس في تلك اللوحة تذكرنا الشاعرة بألم الشاعر الفلسطيني توفيق زياد الذي تحدى الصهاينة والعالم بلغة المستحيل. إذ قال:

أهون ألف مره...

أن تدخلوا الفيل بثقب إبره

وأن تصيدوا السمك المشوي في المجره

أن تحرثوا البحر

أن تنطقوا التمساح

أهون ألف مره

من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكرة

تحدٍ بليغ، ثقة لا يزعزعها البشر كالتي تقولها شاعرتنا:

نحن قوم نرفض القهر

كباراً وصغاراً..
حيث تمشون على أرض الكويت...
سيصير الرمل حجراً
ويصير البحر ناراً..

ثم يرقّ التحدي ويتحول إلى عتاب لتعطيه مدلول الإنتصـــار الحتمي ولتؤكد شناعة وفظاعة الاجتياح. وتُكشف عن نوايا الغـــدر التي ايقظها الحقد والحَسَد وحب المال. وأعمى الطمع عيـــون الأخ عن أخيه فاستباح أرضه وعرضه وماله إذ تقول:

أيها الجار الذي كان مع الأيام جارا
يالذي روعت آلاف المها
إن قتل الكحل في العينين، لا يُدعى انتصارا
إن ما سميته ملحمة كبرى
أسميه انتحارا...
نحن في السراء كنا معكم
نحن في الضراء كنا معكم
فلماذا تزرعون السيف في خاصرتي؟.
ولماذا تستبيحون حِمَى عائلتي؟
ولماذا تملؤون الوطن الآمن موتاً ودمارا؟
أيها الماشون في الفجر على أجسادنا
إنني أسألكم ماذا اقترفنا؟.
هل كفرنا بمواثيق الهوى ذات يوم؟
هل كفرنا؟

كل شيء في الحياة خاضع للتغيير والتبديل والتطوير إلا شيئاً

واحداً يحمل كل جزئيات الحياة وكل تفاصيلها الآنية ليشكل نفسه. إنه التاريخ: فهو جدول الزمن القادم من الغيب يمر بالحاضر ثم يحمل ثوانيه، أحداثه، قضاياه فتوحاته، غزواته، تقدمه، وتطوره، تخلفه ورجعيته. ليصب في بحر الماضي ويشكل شريط الحياة وجريان الأيام.

ولهذا فقد خلدت الشاعرة وصمة عار الغزو والاجتياح للكويت بأبشع أشكاله، وأقذر أهدافه. وأشنع مواقفه. لتبقى درساً للأجيال القادمة. وإحدى نماذج الغدر والحقد والهمجية التي سُطِرَت على أشرطة التاريخ منذ آلاف السنين.

صورة وحشية الأخ الذي يمزق جسد أخيه، ويمشي على أشلاء الشيوخ والنساء والأطفال دون رادع من ضمير، أو خوف من دين، فالدين الإسلامي أكد وحض على التعاون، والتكافل، والتضامن وخاصة بين الأخوة، والأشقاء، والأقرباء حتى إنه أوصى بالجار لدرجة أنه كاد أن يورثه. فكيف الأخ؟ وهذا مما زاد من نار الغزو وقوة الصاعقة أن يأتي الإحتلال من الأخ والشقيق الذي كانت الكويت تربيه وتُعطيه وتمده في الحرب والسلم لتدّخره لحاجةٍ تستنجد به إزاء أي طارئ من غريب.

وهنا يتعاظم المُصاب ويشتد الخطب، وتعم المصيبة حين يأتي الغدر من الأخ والشقيق وابن العم والجار الجنب، والصديق. ولم يعد هناك ما إسمه عروبة أو انتماء لها. فقد أتلفها الطغيان وجرّحها الغدر وهشمها الطمع والتكالب على الأموال لنبق مع الشاعرة ورأيها:

أيها الماشون في الفجر على أشلائنا..

ما الذي يُجدي صُراخي؟.
ما الذي يُجدي كلامي؟
وأنا مسحوقة حتى عظامي
من تُرى يسمع صوتي؟
وأنا مدفونة تحت الركام
عندما يطعنني في الظهر سيف عربي
يصبح التاريخ عارا
عندما يذبحني أبناء عمي
في فراشي
يصبح الحلم العروبي.. غُبارا

ثم يشرق الأمل في محيا صورها وتُضيء الكلمة بأحرف الاصرار على الحرية وتلاحم الشعب الكويتي وبعض الدول العربية والصديقة ضد الطغيان والاحتلال. ويرتفع الصوت عالياً. منـدداً، مهدداً المغول والتتار هؤلاء الشعوب المتخلفة منذ أقدم العصور فقد كانوا ولم يزالوا رمزاً للوحشية والطغيان والهمجية والإلحاد.. فالنفس البشرية إن خلت من الإيمان تحولت إلى مثل هؤلاء:

سيرحل المغول...
عن كل شبر طاهر من أرضنا
ويرجع البحر إلى مكانه...
ويرجع النخل إلى مكانه
ويرجع الشعب الكويتي إلى عنوانه..
وترجع الشطآن، والأمواج، والحقول.
وتشرق الشمس بكل بيت

وترجع الكويت... للكويت

سنغرق التتار في بحارنا

ونسترجع حقنا بالسيف، والصمود، والإصرار

إن الشعوب وحدها تُقدر الأقدار

لن يستطيعوا أبداً

أن يغسلوا سيوفهم بالنفط.

إصرار بلا حدود، دفاع مُستميت عن كل ذرة تراب في الكويت، عودة إلى التذكير بالإسلام وعودة إلى صفحات التاريخ وجرائم الأسبقين تأكيدٌ على انتصار الشعوب وإحقاق الحق وقهر الظالمين والباغين مهما طالت بهم الأيام إذ تقول:

سنرفع المصحف في يميننا

ونرفع السيوف في شمالنا

ونهزم الغزاة مهما عربدوا، واستكبروا

وأحرقوا، ودمروا

لا يعرف التاريخ في مساره

طاغية لا تقهر

في قصيدة أخرى تشبه الشاعرة الاجتياح بالذباب كناية عن كثرة العدد والضعف والفوضى والغوغائية في الاجتياح ثم تصر على عدم مقدرتهم على طرد الكويتيين أو كسر إباء الشعب أو شطب أسمائهم أو سرقة دمائهم من عروقهم، ولن يمنعوا تفتح الأزهار وتجدد الفصول وسترجع الكويت مهما امتدت الأيام ويرجع البحر لزرقته والفجر لحمرته، والطفل للعبته، سترجع الكويت مهما امتد الزمن وأطبق الظلام. لم تترك الشاعرة وجهاً من أوجه الحياة

إلا وسخرته للدفاع عن كل شبر من أرض الكويت لإعادة الحياة الآمنة، وإعادة الحب إلى سماء الكويت وتختم القصيدة باستخدام كل العبارات والكلمات في الدفاع فتقول: ستقذفهم بالنار، بالبروق، بالزوابع، بالغضب الكبير، بالقضبان، بالأمواس، بالفؤوس، بالكؤوس بالكعوب، بالبراقع، سوف نتبعهم من منزل إلى منزل. من شارع إلى شارع من عش صغير إلى عش حتى تعود الكويت للكويت وتدخل الشمس لكل بيت وتعود البسمة لكل ثغر.

رغم كآبة المحنة واشتداد ألمها بقي التفاؤل يعانق رومانسية الشاعرة ويضفي على الحزن بسمة الرجاء والأمل، ويتراقص حلم الإنتصار فوق أشلاء النفوس المنهارة ليعيد إليها تدفق الحياة ويُخفف المصاب ويهدئ من روع الأحداث المتلاحقة. ويزيد في تجديد القصائد، دون أن تقع في التكرار أو الرتابة المملة في السرد، إنه تجديد في كل فكرة وكل كلمة وكل معنى ومرمى استمدت من عمق البحر عمقاً لكلماتها ومن ذراته تعدادها ومن صفائه نقاء سريرتها وصدق إحساسها ومن رحابة الصحراء مساحة خيالها الجامح، ومن دفء الشمس حرارة ألفاظها ومن إغداق الأرض وكرم الطبيعة أصالة وتسامح وحب وإباء نفسها التي مثلت بها كل الشعب الكويتي الشقيق إذ تقول:

أهل الندى والعفو، والسماح
لو جرحونا مرة.
نطلع كالأزهار من ذاكرة الجراح
أو كسروا جناحنا
كنا لهم

أكثر من صدر ومن جناح
أو دخلوا بيوتنا
نطعمهم من خبزنا، وتمرنا
نُشركهم برزقنا
نحيطهم بحبنا
نحن الكويتيين.. من عاداتنا
أن نجير الجار
أن ننبذ العنف
أن نرفض الظلم على أنواعه
ونكره الطغاة والطغيان
أن نعصر القلب لمن نحبهم
وأن نكون دائماتً جانب الإنسان

ثم تتابع في عرض المنطق الإنساني وتفتح ملفات التاريخ، تاريخ المستعمرين المحتلين لتستشهد بقدرة الأيام وقوة الطبيعة والحياة إذا لازمها الإصرار والتحدي والصبر والإيمان، ولابد لصوت الحق أن يجلجل مهما كبته الباطل وحاق به الظلم، كما الشمس وكما الصباح هذه دورة الحياة:

يا من زرعتم في ضلوع شعبي الرماح
كيف بوسع عاشق أن يرفع السلاح
في وجه من يحبهم
كيف بوسع العين أن تقاتل الأجفان
فلملموا خيولكم... وانسحبوا
ولملموا أشياءكم وانصرفوا

لا أحد يقدرُ أن يُغيرَ التاريخ
أو يستعمر الأرواح
لا أحد يقدر أن يُطفئ الشمس
أو يصادر الصباح.

وهكذا تمتد ألسنة اللهب الحارق الذي تدافع به الشاعرة عن كلّ ذرة تراب وماء، ليصل إلى شغاف القومية العربية. فنتساءل بكل العنف والجرأة والبسالة التي دافعت بها، من ساهم في ذاك المصاب، مصاب الاجتياح. غير آبهة من تفردها بتلك الجرأة وما قد يُصيبها منها. تقول كلمة الحق مجردة عارية من أي زيف أمام أمواج الباطل والاستبداد والهمجية. فتسأل. من؟..؟...

من قتل الكويت
يتفجر السؤال في عقلي... وفي قلبي
كنهر من لهب...
كيف تموت وردة بلا سبب؟.
كيف تموت نخلة بلا سبب؟.
هل أعجمي ياترى قاتلها؟.
أم عربي جاء من أرض العرب؟
من ذبح الحمامة؟ من قتل القصيدة.
من سرق الكويت... والياقوت
من خواتم النساء... من سرق التاريخ
واغتصب الزمان.. والمكان..
والحياة، والأحياء..
من اقتلع الشعوب من مكانها... وغير الوجوه

والعيون والأسماء... هل نزعة سادية.

أم شهوة الأعراب..

من حكم النخيل بالإعدام... والقمر بالإعدام...

في كل كلمة حرف يغلي وفوهة بركان تفور، تتساءل والحزن يجيش في فؤادها وألم الاغتصاب يمزق أحرفها النازفة لنعد إلى كلمات النص قليلاً (يتفجر السؤال، كنهر من لهب، كيف تموت وردة ونخلة بلا سبب، هل أعجمي؟.. أم من أرض العرب؟). وكان أرحم لو كان أعجمياً، من ذبح الحمام، سرق الكويت، قتل القصيدة، سوق التاريخ، اغتصب الزمان والمكان، اقتلع الشعوب، والوجوه، نزعة سادية، أم شهوة الأعراب.

كل الكلمات تعطي دلالات حتمية على القنص والوحشية والأمراض النفسية، فالسادية مرض خبيث إذا استفحل بالانسان فكيف بالحاكم؟... بعد كل تلك التساؤلات تنبري لتقول:

لم يسقط القاتل من سحابة

لم يأت من غياهب المجهول

فهو امتداد مرعب لفكر كربلاء

وعنف كربلاء

ومقتل الحسين مغدوراً على رمال كربلاء

قاتلها من منتجات أرضنا

كالقمح، والشعير، والبقول

قاتلها ليس سوى مقامر

سطا على عباءة الرسول..

التاريخ يُعيد نفسه، والسادية مرض بالوراثة كما الغدر

والإجرام والتسلط كلها صفات تأصلت إلى حد بحكام سوّدوا صفحات التاريخ عبر الأجيال الماضية في العراق الشقيق القطر الذي ترعرع على أحضان الكويت وشب وقوي ساعده من خيرات الكويت. ثم تتابع:

لم يأت من فراغ
وإنما جاء إلى الوجود من أرحامنا
من وجهنا الشاحب، من عاهاتنا
من فكرنا.. وغدرنا... وحبنا لذاتنا
وعقدة السلطة في دمائنا
إنه خلاصة لكل سيئاتنا
كفى... كفى... نجلس فوق قبرها
نخرق الثياب... نهرب من ذنوبنا
لا أحد يجرؤ أن يهرب من وحشية المأساة
إن دم الكويت منثور على ثيابنا
أليست الشعوب أيضاً تصنع الطغاة

هنا يبدو السهمُ واضحاً. وإصبع الإتهام لم يعد حائراً فقد توجه إلى ذاك الولد المشوه الذي يتشكل من عُقد النقص ومركبات الخطيئة التي فصلت بين الأمة العربية فالأنانية والتسلط والتكالب على السلطة جعل ذاك المعتوه يبرز ويعيث فساداً.

ثم تتابع قصيدتها لنبذ الزيف والتلفيق، والتنظير والبيع والشراء في الكلام:

من حطم الكويت
حطّمها... تلك الدكاكين التي تبيعنا الوحدة والقومية.

حطّمها عصرٌ من التلوث الخلقي.. والتفسخ القومي والتلفيق، والتصفيق، والشراء، والتصدير، والتنظير والكتابة الأمية.

حطّمها الغرور والجنون.. والأنظمة الفردية.

وألف ألف حاكم بأمره

استبدل القرآن بالنازية.

وهكذا حمّلت جزءاً من الإجتياح أو مسؤولية ولادة المشوه لبعض الدول العربية التي حطمها الغرور، والفردية. والتي تتاجر بالوطنية والقومية وفي داخلها معقل النازية ثم تُبرئ الشاعرة نفسها ووطنها من المشاركة في نفخ أوداج الثعبان وشد عضلاته التي مرنّها في محاولةٍ للإستيلاء على الكويت. لا بل فهي لا تفتأ في كشف اللثام عن بعض وجوه الحكام العرب لإبراز هوية التعامل عندهم.

لقد تميزت وتفردت الشاعرة في عرض الوقائع والحقائق بمثل جرأتها الصادقة، بعد أن انتزعت الخوف من قلبها وقلمها على السواء وأزاحت اللثام الأدبي عن آرائها التي بقيت ممتزجة بالإنسانية والدم، لم تجمد فيها العروق كما تجمدت عند البعض ولم تتحول إلى أرنبة مُطاردة. وهي التي تستطيع أن تحيا أينما شاءت بكل العز والكرامة. لنبقَ مع كلماتها النارية التي تبدو أعنف وأكثر ما قيل وما وصف. وأقل مما يستحق الموصوف:

من قتل الكويت

لا أحد يجرؤ أن يقول (لا)

فكلنا شارك في جريمة القتل

وفي تربية الثعبان
وكلنا شارك في صناعة الشيطان
وكلنا صفق للطغاة والطغيان
فكيف نشكو الآن من أوثاننا
ألم تكن حرفتنا أن ننحت الأوثان
من قتل الكويت
لا توجد المصادفة
في زمن السادية العمياء
والفاشية السوداء
واللصوص، والحكام، والتجار، والصيارفة
لا توجد المصادفة
في زمن صارت به شعوبنا
أرانباً مذعورة وخائفة
لا بيت لإنسان كي يسكنه
إلا بقلب العاصفة

لم يخبُ بريق الأمل لحظة في نفس الشاعرة، ولم ينتابها اليأس حتى في حرف من حروف الكلمات التي صاغتها وضاءة جلية مليئة بالمكنون الحقيقي للأمة العربية، فالحقيقة دائماً عنوان مشاعرها ومضمون أقوالها وألوان رسومها لكنها في كل ذاك كانت دائماً تحمل معنى الإشراق والحرية تحمل لون الثورة الدامية بالإصرار على استرداد الكويت مهما طال بها ظلم الأشرار ومقتحمو الدار. فتبث الأمل وتقوي العزيمة وتقرأ المستقبل.

ستبعث الكويت من رمادها... كطائر الفينيق

وتصرخ الأمواج في الخليج
حي على الجهاد
حي على الجهاد
لابد في نهاية المطاف
أن يثأر المقتول في قاتله
وأن يدور الحبل حول رقبة الجلاد

لم تكتفِ الشاعرة بما جادت بها قريحتها المُلهَمَة من الشعر وكل ما جندته من ألفاظ وتعابير تدخل من خلالها كل نفس – صغيرة وكبيرة، قريبة وبعيدة، صديقة ومحايدة، ثورية ومسالمة – فتثير فيها زوابع الإنتقام، وتكسب بها صدق المشاعر وحق الانتصار:

من خلال عاطفتها الصادقة، وعرضها الأليم لوقائع الإجتياح. وقتل النفوس البريئة. ووحشية الغزو، ومفارقات الحياة لذئب مفترس ينقض على حمامة وديعة مسالمة تحمل له الخير بين أجنحتها الناعمتين. رغم كل ذاك فقد لجأت لتفرغ شحناتها الباقية، ولتصب هام غضبها في بساط النثر الفسيح، وكي تخاطب باقي الملايين الذين لم يسمعوا صوت الشعر. فكتبت (برقيات عاجلة إلى وطني) أزاحت اللثام عن جميع مفردات اللغة العربية التي تخدم الثورة والحرية فجاء نثرها كما شعرها، أقوى عاطفة، وأصقل ديباجة، وأعمق معنى وأقسى لفظاً، وأكثر سخرية، وألهب حماساً، وأمضى سلاحاً، وأحَّدُ جرأة وأعلى صوتاً، وأمتن التحاماً بكل ذرة تراب، وأصدق دليلاً على وحشية الغزو.

تضمن الكتاب عشرين مقالاً كل مقال تحول إلى خيمة فُرشت

فوق سماء الكويت للدفاع عن كل ذرة هواء فوق أرضه، ولتعكس كل ألوان العذاب والقهر والتشرد الذي تعرض له أهل الكويت الشقيق. فيه تصوير بارع للإنتصار الذي حققته الكويت تلك الصخرة الملساء الراقدة في أحضان الخليج والتي تشع مودة ومحبة وخيراً.

رغم ذاك فقد هزمت ذاك العملاق الضخم. وتحول كل فرد فيها إلى صخرة عاتية لا يخترقها الرصاص ولا تلويها الدبابات. لنبق مع الشاعرة في بعض فصول المسرحية.

"إن النظام العراقي، بكل غروره وغطرسته، ومخابراته، وآلته الحربية الفتاكة لم يستطع أن يجند مواطناً كويتياً واحداً أن يكون دليلاً أو عميلاً له في ممارسة احتلاله".

في مقطع آخر تتساءل بكل سخرية القهر، وعبادة الأرض والوطن بعد الله، وبكل الوعي الحر الأبي لمعنى القومية العربية. وبكل الصفات الجارحة الخبيثة التي يستحقها الغازوون فتقول:

هل تسمحون لي أن أحب وطني؟

أيها الأصدقاء.

"إنني شاعرة كويتية عربية، نذرت دمها، وقلمها، ومالها، من أجل إقامة وطن عربي جديد، ينهض على أساس العقل، والمعرفة، والعدالة، والديمقراطية، ولكنني بكل إصرار أرفض الخلط بين القومية العربية، وبين اللصوصية، بين المثل الأعلى وبين الغوغائية، وبين طهارة العقيدة، ودعارة التطبيق"..

فهل هناك أجرأ من تلك الكلمات في قاموس الشعوب فكل كلمة فيها مجبولة بقطرة من دم الشاعرة، محاطة ببركان جياش

يتفجر على الصفحات بأسلوب رشيق فيه كل معاني الاصرار والألم والتشبث بالأرض والوطن أكثر... وأكثر.

كان العراق في زمن السلم مع الكويت وزمن الحرب مع إيران الابن المدلل لسعاد الصباح خاصة لكاتبة وشاعرة وإمرأة كويتية تُدرِّس الاقتصاد وتحمل في قلبها كل معاني الإنسانية.

من إحدى أقوالها: في مقال نشرته (جريدة القبس الدولي) بتاريخ 5 /آب/ 1990:

"لقد كنت دائماً متهمة بأنني عراقية الهوى، وأن كتاباتي شعراً ونثراً، مبللة بأمطار العراق ورطوبة أنهاره، ونضارة بساتينه، كان العراق يمثل لي، تلك القوة الصاعدة، الواعدة التي افتقدناها في السبعينات، كما كنت أرى فيه البديل القومي، والاستراتيجي الذي سيصحح ميزان القوى بيننا وبين إسرائيل، وينهي حالة الهوان، والتخاذل والتشرذم والإنقلاب التي عصفت بدول المنطقة".

$فما الذي حدث حتى غامت الصورة الجميلة، وبهتت ألوانها؟ كيف يبت بين عشية وضحاها بساتين النخيل في قلبي، وماتت العصافير، واختفى ضوء القمر، كيف انكسر زجاج السماء فوق رأسي... ودخلت شظاياه في عيوني؟..

إنني أكتب هذه الكلمات وأنا مدفونة تحت رماد هذا الزلزال العنيف الذي طمر أحلامي الجميلة وطمرني. ثم تصل المأساة إلى قمتها عندما يموت عمها بين يديها في إحدى مشافي لندن، بجلطة دماغية بعد سماعه أنباء الغزو العراقي على الكويت، ولا تستطيع نقله إلى الوطن الحبيب ليدفن في ترابه حسب وصيته، وتظل أياماً تفتش له عن تراب يحتضنه. فقد تشرد الكويتي في حياته ومماته

واحتل العراق الصديق الدار والمقابر.. رغم كل ذاك الألـــم وتلـــك العواصف الساخنة التي حاقت بالكويت عامة وبالشاعرة خاصة فإنها لم تتخل عن أسلوبها اللبق المؤدب الـــهادئ الرصيـــن، وصورهـــا المأساوية التي تؤطرها بلمسات إنسانية حنونة لا بل إنها تعتذر فـــي المقالة بصراحة:

"إعذروني، أيها السادة، إذا كانت كلماتي عصبية، وحارقـــة.. فالكتابة على فوهة بركان، لا بد أن يكون لها طعم الحريق".

ومن هنا تأتي الثورية الفريدة التي فجرتها سعاد الصباح فـــي القضايا القومية، والأفكار الثورية والمعاني الحضارية، مـــا تجنبـــه كثير من الشعراء الآخرون الذين لا يملكون شيئاً يخافون عليـــه. إلا إن ثورتها لم تقتصر على أبناء وطنها وإهمالهم وتكاسلهم. بل امتدت لتشمل زملاءها من الشعراء والأدباء الذين أداروا ظهورهم وقبعـــوا في دياجير ظلمة عقولهم وجبنهم المحترفين منهم والمرتزقة، غـــير آبهة بعداوات هؤلاء لأنهم لا يستحقون الصداقة ولا كلمة الزمالة.

فتقول: "إنني لم أكتشف ما هو معنى جبن بعض المثقفيـــن إلا في هذه الأيام المأساوية، فكاتب يكتب بنصف أصابعه... وآخر بربع أصابعه... وصحافي كبير يكتب لي لا يقول شيئاً.. ولايتخذ موقفاً... وكاتب يضع عشرات الأصباغ على وجهه كأنه ذاهب إلـــى حفلـــة تنكرية، وكاتب يختبئ تحت اللحاف حتى لا يُلقى القبض عليه متلبساً بجريمة قول الحقيقة..".

ثم لا تلبث أن تصفع بعض أطباء القوميـــة العربيـــة (كمـــا وصفتهم) بنبال خيانتهم للكويت وجبن أفعالهم فمنهم من يميل مـــع القوي حتى ولو كان باطلاً لأنهم لم يتعودوا على الجرأة والثبات في

الموقف الحر الأبي... فهم كالعشبة الغضة التي لا جذور لها كيفما مال الهواء تميل معه كي تحافظ على كرسي ورثته دون جهد أو استحقاق. لنقرأ ما قالته الشاعرة عنهم:

"عندما يسأل الكويتي وهو يبصق دماً بعض أطباء القومية العربية وصيادلتها: ووطني الكويت؟ ما هو وضعه الديموغرافي، والفيزيولوجي والعضوي والإنساني حسب تشخيصكم فيجيء الجواب... زائدة دودية طبعاً..

وما أصاب الكويت لم يكن سوى عملية جراحية حمقاء قام بها حلاق يمارس الجراحة.. بلا ترخيص قانوني"..

ثم تتطرق إلى عملية النقد الذاتي والإشارة إلى الأخطاء التي ربما كانت سبباً في العدوان عليهم وهذا نوع من الفضيلة لأنها لم تبرئ ساحة الكويت من الخطأ. وها هي تنثر جملها وكأنها قائد على رأس قافلة من الجيش تحض جميع أبناء وطنها. على الإصلاح وتُسمع العالم الخارجي العربي وغيره بأن الإصلاح سوف يتم وإنه لا عيب في الخطأ بل العيب في الإستمرار فيه. ثم تخاطب أبناء وطنها بلغة الآمر الناهي وكلها ثقة بأنها تتكلم بلسان كل إنسان في الكويت فتقول:

" يجب أن نتعلم. ويجب أن نتغير، ويجب أن لا نخاف من مواجهة المرايا ومواجهة أنفسنا ".

ثم تختتم كتابها ببضعة أسطر هي راية خفّاقة. ومنارة يُهتدى بها، وعمل جماعي، يدل على عِظم المحبة والإلتصاق بالوطن الأم وحلاوة الموت فداء عنه. وهذا أمر عادي في أي بلد في العالم إلا أن الكويت لم تكن تحسب حساب الدفاع حيث هي بلد السلام

والرفاهية والأمن يحيق بها من موقعها بين الدول العربية الشـــقيقة. لنبقَ مع آخر معزوفة من أناملها الرقيقة وألحانها الشجية في (كتـــاب تحرير الكويت... كتاب كبير وقد شارك في تأليفه مئات الألوف من الكويتيين.. رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، شيوخاً ويافعين، مقيميـــن ومهاجرين، كل واحد منهم أضاف إلى الكتاب، سطراً أو كلمـــة، أو نقطة حتى أشرق ضوء الشمس، وقرعت أجراس الحرية، إن كتـــاب حريتنا ليس له مؤلف واحد... أو كاتب واحد... ولم تكتبه يد واحدة، وإنما هو نشيد جماعي شاركت فيه ألوف الشفاه والحناجر.

إنه عمل سيمفوني، شارك فيه كل كويتي بجملة موسيقية حتى اكتمل النشيد".

وهنا نرى إنها أضفت على النثر جمالية الوصـــف الشـــعري بأسلوب مثير وعاطفة صادقة، ليس فيها للأنانية والخـــوف مكـــان، ولحب الظهور بيان. فكل فرد في الكويت هو جزء من جسد واحـــد وكل جزء ساهم قدر الإمكان وهذه نوع من الدعوى للعمل الجماعي، ففي الاتحاد قوة وفي القوة جرأة وفي الجرأة ثقة وفي الثقة قوة. ولو أن جميع الدول العربية تتحد هكذا بيد واحدة لطـــالت العـــالم بـــاليد الأخرى ثم ينبلج الصباح... وتشرق الشـــمس، وتعـــود العصـــافير لأعشاشها وتعود المياه لمجراهـــا، وينتصـــر الحـــق... والحـــب.. وينتصر العدل على الشيطان. وهنا تلملم الشـــاعرة عبـــق بلســـمها الحنون وتنشره على الجراح الدامية. والقلوب الملتاعـــة. فتمـــتزج الكلمات بدماء الشعب الكويتي ودماء كل من مد لـــها يـــد العـــون مضمخة بالحب والوداد لتخرج ملونة بلون العيون. وفرحة القلـــوب وزغاريد الطبيعة، ونشوة الأرض. وسرعان ما تنتقل تلك الانفعالات

إلى القارئ لما فيها من رقة في الكلمة وشجون في المعنى وفرحـــة في الأعماق إذ تقول:

يا أمنا الكويت

ضمينا إلى صدرك بعد غربة

فنحن من دونك يا حبيبتي

جيش من الأيتام

لا نعرف الحب، ولا الدفء ولا السلام

مسافرون ضيعوا خارطة الشهور والأيام

حمائم قد نسيت مبادئ الكلام

ياأمنا الكويت

بالأحضان بالأحضان بالأحضان

فمدي فوقنا شراشف الحنان

دالت دولة الطغيان

إنكسرت سلاسل

إحترقت مقاصل

إنهدمت جدران

وانتصر الله على الشيطان

ثم لا تنسى الشاعرة الأصدقاء الذين هبوا لنجدتها والوقـــوف بجانبها كالسيف البتار، تناديهم بقلب مفعم بالحب والتقدير والإحترام، وكعادتها الرقيقة السمحاء تضعهم بمكانة القلب للكويـــت والضلـــوع والأجفان. إنها أجمل ما قيل في الشكر وأرق ما قُدِم مـــــن امتنـــان صادق من قلب فصلته الإنسانية وأرهفه الإحساس بالعاطفة تقول:

يا أصدقاء السيف... قلبي معكم

وأنتم تقاتلون الوحش
بالعصي، والفؤوس، والأسنان
يا أصدقاء الغضب الكبير، والاصرار، والإيمان
بفضلكم عادت لنا الكويت
عزيزة قوية، خفاقة الأعلام
بفضلكم عادت لنا ديرتنا
وعادت الأبراج والنوارس البيضاء والحمام
يا من حرستم أرضنا
بالقلب والضلوع والأجفان
بفضلكم سنصنع الكويت من جديد
ونزرع النخيل في شطآنها
ونزرع الريحان
إن الشعوب دائماً أقوى من الطوفان

هكذا خاطبت الشاعرة الأحبة الذين يحافظون وللأبد على أصالة الدم العربي والشهامة والمروءة هؤلاء هم الدول العربية التي آلمها ألم الكويت وأرهقها هول المفاجأة. وثار في دمها بركان الحميّة لتلك الحمامة الوديعة والتي لم ينمُ لها مخلب في السابق.

وسرعان ما لبّوا نداء الأخوة وجمعتهم الكارثة بيد واحدة للذود عن جزء من أجزاء الوطن العربي جزء هام من بنيان كبير للوطن العربي يمثل رئة تضخ الخير لكل طالب ومحتاج ويمدّ يد البر والإحسان في كل المناسبات للأشقاء العرب. وهكذا انتصرت الكويت. انتصر الحق في أرض الأمان بمساعدة الأقوياء والأشقاء الأحباء وكل اعتداء على شبر من الأرض العربية من أقصى الغرب

إلى أقصى الشرق ومن شمال إلى جنوب الخارطة العربية هو اعتداء على كل الخارطة العربية ولو اجتمع العرب يداً واحدة وكتلة واحدة لكانوا أقوى أمة في العالم وأكثر حضارة وتقدماً.

بهذا أختم القصائد القومية الوطنية التي جمعت بين عمق المضمون وشموخ الشكل والمعنى، وخصب الخيال، والنظرة الثاقبة لقراءة المستقبل من خلال التحليل المنطقي للأمور وقوة الذكاء الذي يحلل. وهذا ما برز في بعض القصائد التي قرأت فيها الشاعرة المستقبل قبل حدوثه وبدأت بمعالجة المسببات قبل وقوع الكارثة ولكن يداً واحدة لا تصفق. فما تتمتع به الشاعرة من ذكاء حاد ورؤية ثاقبة ورجاحة عقل يصعب على الآخرين أن يصدقوه خاصة إذا كان الآخرون يغرقون في النعيم ولا يحسبون حساب الغد فقد استسلموا للأمان ونسوا تقلبات الزمان.

ثم الإبداع في بناء القصيدة فقد تبدأ بفكرة أو خاطرة أو رؤيا أو مرمى أو إحساس فتنصهر في داخلها تلك الانفعالات وتمتزج بإحساسها المرهف وجرأتها المميزة وصدقها الطاغي وثقتها التي لا حدود لها. ورهافة حسها وحنان إنسانيتها، ونقاء سريرتها ثم تخوج لنا القصيدة بنياناً متكاملاً منسجماً موزوناً، الشكل والمضمون لا ثغرة تعكره ولا رتابة يُمل منها ولا تكرار أو حشواً بين طيات القصائد. بحيث لا يستطيع المرء أن يحذف كلمة أو يضيف أخرى وهذا ما جعلها في مصاف الشعراء المبدعين الذين ميزتهم الجرأة – وهم قلة – عبر التاريخ إلا أنها واحدة منهم في كل ما جادت به قريحتها الموهوبة وكنزها الثمين، وينبوعها الذي لا ينضب.

وعلى الرغم من الغنائية التي تسيطر في بعض الأحيان على

الشعراء الرومانسيين والتي تؤدي إلى فقدان الشكل أحياناً. فإن وعي الشاعرة سعاد الصباح كان قوياً بحيث لم تسمح لبنيان القصيدة من بالتشتت بل ثابرت على التكامل في جميع أنواع شعرها.

إن كل ما عنته الشاعرة في حسها القومي والوطني في مخاطبة جذور الأصالة والحض على الجهاد للدفاع عن أرض الوطن ما هو إلا إحياء لتلك الأصالة التي ران عليها الكسل والخنوع بتدفق الذهب الأسود. والحاضر ما هو إلا امتداد لجذور وعراقة الماضي ومن ضاع ماضيه لا مستقبل له ولا كيان، وما نسغ الحياة الحضارية إلا تدفق من جذور الماضي العريق إلى جذع الحاضر ثم إلى أغصان وأوراق المستقبل. وما الحياة إلا دارة متكاملة قوامها الماضي والحاضر والمستقبل فإن فقد جزء من هذه الدارة تموت الأجزاء الباقية. فالماضي وإن جَمُد قليلاً فهو لم يزل زاخراً بتراث البطولات التاريخية التي تلهم أبناء الوطن بوميض منها لتحدي وإبادة كل عائق يعترض سبيل الحرية والإنطلاق والمستقبل.

فالحضارة هي في نجاح البشر بالتحدي والتصدي لكل السلبيات التي تعرقل التقدم وليست نتيجة لما تقدمه الطبيعة من نزوات وأموال وخيرات. فالحضارة من صنع الإنسان وليست هبة تُقدم له.

الأمومة والرثاء

لم تكن الشاعرة سعاد الصباح تتقن فن الغوص في قضية واحدة، لتسير على شواطئ القضايا الأخرى في المجتمع. لا بل إنها تتقن فن سبر الأعماق واستخلاص اللؤلؤ والمرجان في أكثر قضايا الحياة. فقد أبدعت في صياغة أحرف من نار للحمية القومية والوطنية، وحلقت في أبدع وأطرب مُثل الحب والهيام، وزلزلت جذور الماضي كي تُبيد العفن عن حاضر المرأة وتمحو الصدأ عن شريط حياتها المرير وفوق كل ذاك فقد فجر فقدُ ولدها كيانها النفسي، فتناثرت شهباً محرقة وأحرفاً مضيئة توضعت في قصائد الرثاء. فنثرت قطرات دمها نقاطاً فوق الحروف الدامية، لترسم لنا مشهداً درامياً جياشاً بالانفعالات مليئاً بالآهات مؤطراً بلوعة الأمومة، وحرقة الفراق المر، وغصة الألم، ألم انسلاخ فلذة كبدها من القلب، ألم الضعف الذي لا بديل له في الوقوف أمام يد الموت عاجزة منصاعة والفاجعة تمزقها إرباً. وقد كللها الإيمان والصبر، وتحكّم بها العقل والرؤيا الناضجة الواقعية للحياة. وتضع بين أيدينا مصدراً من أهم المصادر فناً، ونصاً، وعملاً متكاملاً. فهو ليس مجرد وصف مطابق للواقع. بل هو تيار يثير في نفس القارئ زوبعة من لواعج الإنسان ويحرك مشاعره فتنتقل من صفحة الورق إلى شرايين قلبه فيُعيد تشكيل الموقف ويتجدد الحدث أمامه وتبدأ حواسه برد الفعل فيبكي ويتألم وأحياناً يتكلم مع ذاته الخ.. لتبقَ مع الشاعرة في أقسى لحظات العمر (في طائرة الموت) حيث تتجلى الموهبة الفذة في نقل صورة القدر وهو ينتزع الشاب من أحضان أمه. صوت الوداع يخنقه الأنين، ونداء الاستغاثة يتحشرج في فم

الشاب وهو بين يدي الموت ويطلب النجدة من الأم وأي أم ملؤهـــا الحنان والإنسانية ملؤها القوة لكل شيء والإصرار والعزيمة لكل ما تريد إلا الموت والقدر.

وها هي تقف ضعيفة والقلب يتمزق بين الواقع والأماني بيـــن الاصغاء لنداء الأمومة والقوة التي تعارك فلذة كبدها في الطـــائرة.. وإليكم المشهد:

صاح بي طفلي المفدّى وهو مخنوق الأنين
ويك أمي أدركيني.. ويكِ أمي أنقذيني
إسعفيني بهواء من صمام الأوكسجين
وخذيني في ذراعيك لأرتاح... خذيني
قربيني... قبليني... عانقيني.. ادفئيني..
إنني أشعر بالرعشة تسري في وتيني..
أخرجي الحبة من جيبي، فقد كلت يميني
وضعيها في فمي، علّ أشفى بعد حين
وانزعي ربطة صدري، انها قيدُ سجين
الضنى فوق احتمالي، فأعينيني... أعيني
قالها ثم أرتمي في الأرض كالفرخ الطعين

انتهى العراك مع الموت، وانتهت أسطورة الحياة بذاك الشاب، حملته يد المنون وانتزعت معه جزءاً من قلب الأم، وهنا تضطـــرم نار اللوعة وشدة الألم في حنايا الشاعرة ويبـــدأ الموقـف بعـــرض حركات لا إرادية غير واعية على تصرفات الشاعرة فتنادي قبطـــان الطائرة بالعودة إلى الأرض ظناً منها بأنها ستتمكن من إنقاذ ولدها.. هنا ينحسر الوعي لينفرد اللا وعي بالموقف نتيجـــة الألـــم وحلكـــة

المصيبة لنتابع:

فارتمى قلبي عليه في ارتياع وحنين
ولدي... ياكنز أيامي ويا حلم سنيني
يا شباباً كلما حدقت فيه يزدهيني
ليت آلامك كانت في كياني تعتريني
آه من طائرةِ الموت التي هزت يقيني
قلت للقبطان عد للأرض... دعها تحتويني
علني أظفر فيها بطبيب أو معين
ومن الموت يقيه... ومن الهول يقيني..

ثم تبدأ الشاعرة بصوغ ونشر كلمات الوداع، والفراق التي تصطلي في أحشائها كأم وأي أم كشاعرتنا تحمل كل معاني الإنسانية والإحساس المرهف، والقلب الحنون لكل الناس فكيف لفلذة كبدها. فتُذيب الحجر، ويرق لها الطير فيهوي، وهنا لما كان حبها الشديد هو الباعث لكل هذه الآلام فلابد أن يكون نفس الحب هو الباعث لرجوع الإنسان إلى ربه وصحوة وعيه ضمن ما تحركه رجاحة العقل والإيمان المطلق بالله عز وجل، ومن هنا كانت العلاقة الجدلية للحب بين الله والإنسان المؤمن. فتنتقل تلك المناجاة التي تلهج بها الأم الثكلى من واقع مرير أليم، محرق، مفرق، إلى إنفعال روحي وفكري ونفسي يثلج الصدر ويؤكد التسليم المطلق لقضاء الله عز وجل وبذلك تكون درساً فتقول:

إنني أغرق في بحر من الدمع السخين
إنني أصرخ من ناري.. وأهذي من أنيني
بعد أن جن جنوني.. وغدا اليأس فديتي

كم تضرعت إلى الله بإيماني وديني
أن يرد الموت عمن هو تاج لجبيني
وهو في حضني يداري اليأس من عطف ولين
وادعاً يستقبل الموت بقلب مستكين
إيه يا دنياي.. زيديني شجن وامتحنيني
لم يعد لي في المنى ما أشتهي أن تمنحيني
بعد ما انهد الذي شيدت من حصن حصين
كان في مستقبلي غاية مأواي الأمين
كان نوري وعذائي في دجى ليلي الغبين
كان مالي وثرائي... كان أحلام السنين

أكثر ما تظهر نفحة الإيحاءات الصوفية في القصائد عندما يقع الشاعر في محنة أليمة بفقد عزيز عليه. فتمتزج الذكريات بالألم وسط ضياع ضبابي، ولم يعد له ملجأ يأوي إليه إلا مناجاة الله عز وجل والتوسل إليه ليبدد آلامه، ويخفف أشجانه ويلطف من هول الكارثة، وقد برزت هذه الايحاءات في قصائد الشاعرة في ديوان إليك ياولدي الذي يبلور الجوانب المتعددة لموقف الأم الثكلى التي تجد في حب ومناجاة الله البلسم الشافي والدواء لنزف الفؤاد، والصبر الكافي ليرمم مكان الفقيد في القلب والروح. وترى هذه المناجاة متجسدة في قصيدة /موعد في الجنة/ ذاك المكان الذي وضعته الشاعرة في الأمل، أمل لقائها بإبنها بعد أن أصبح من المستحيل لقاؤه في الدنيا. ذاك الاستسلام للأقدار يهون من المصيبة ويطفئ نار اللوعة وإن بقيت رماداً، عتاباً رقيقاً حزيناً، عراكاً بين الأمل واليأس بين الحلم والواقع مع الشاعرة:

أيا دنيا من الآلام أسري في دياجيها
أكايدها... ولا أدري متى أو أين ألقيها
وكم أجهدت إيماني وصبري في تحديها
فلم أجن سوى يأس من الدنيا وما فيها
مبارك كان لي دنيا من الحب أناجيها
وآمالاً أعيش بها، وأحلاماً أغنيها
قضيت العمر والإثنين أرعاها وأحميها
وللمستقبل المرجو أختال بها تيها
فكيف... أغتالها في قضاءُ جاء يطويها
ويلقي بي إلى الظلمات تشقيني وأشقيها
كأني موجة في اليم قد ضلت مراسيها
فيا ولدي، وياذخري من الدنيا وما فيها
أجب من يغلِبُ النار التي شبت ويُطفيها
أما تشهد أيامي... وما أقسى لياليها
تعذبني دقائقها... وتحرقني ثوانيها

فأي حزن يئن بين تلك الكلمات.. صوت المـــوت، وصـــوت الصلاة، والمناجاة تجسد موقف الإنسان مـــن القـــدر. والإيحـــاءات الصوفية والدلالات والصدى الغيبي لحب الله تمـــتزج فيـــه الدنيـــا بالآخرة والعالم المادي بعالم الروح ضمن إطـــار واحـــد، فينتفـــي الوجود المادي ليبقى الخيال الروحي والأعمال والحركات والأقـــوال صوراً تتوالى على الذاكرة. وتجدد الحدث أحياناً. وتخلده في طيـــات الذاكرة دائماً:

وهذه دارنا الفناء قد حالت مغانيها

وطوّف بائع الأحزان في كل نواحيها
وأضواء الثريات خبت في عين رائيها
وحتى نضرة الأزهار ماتت في أوانيها
ولم يبق سوى صورتك الحلوة... أفديها
وبالروح أعانقها.. وبالأدمع أسقيها
أياً لوعة قلب الأم إن ماتت أمانيها
فلا الشكوى تؤانسها ولا الصبر يواسيها
إلى أن ينتهي العمر ويدعو الروح باريها
لتسمع في جنانِ الخلد فلذتها تناديها

بدأ البوح الوجداني ينسال كالشهد من فائض اللوعة، وحرقة العواطف، وشدة الألم الذي صهر فؤاد الشاعرة ولم يبق لها إلا الذكريات ومناجاة الحبيب الذي غاب جسده وطافت روحه في أرجاء عالمها لتبعث لنا الصور والأفكار والتداعيات والهمسات التي لم تزل تضج في أذنيها وتغطي مقلتيها. فمرة تناجي العيد وأخرى بركان ثورتها وعبر حديث الروح تدخل إلى الطبيعة لتستعمل مفرداتها أيضاً. لنعد إلى قلب الشاعرة:

كم أخدعه.. قلبي المسكين
ويدي نزعت منه السكين
وأقول له عن غير يقين
العيد غداً للبيت يزين
فغداً في التاسع والعشرين
ولدي في عمر البدر يبين
ويتم ثلاث عشر سنين

فهل يصدق القلب ونزف الجراح تئن في حناياه، وهل تشـــفيه الكلمة والسكين لا تزال تعالج القروح... إنما الإيمان يصنـــع تلـــك العلاقة الجدلية بين الإنسان وربه. فالصوفية مفتاح الصبر، والصـبر مفتاح الفرج، والفرج بلسم يُسكب على القلوب ليعيد التوازن..

فيقول القلب... كفاك خداع

فالعيد مضى من غير وداع

والأمل الحلو المشرق ضاع

لم يبق بقلْبَ النور شعاع

لم يبق لطعم العيش متاع

وبقايا العمر ضنىً وضياع

ثم يتابع حوار القلب مع المنطق الذي يلمسه، وحيثيات الأمور التي كانت تتم والتي هي الآن:

لو كان العيد لزينا الدار

وجلبنا الحلوى والأزهار

وفرشنا النور على النوار

وسهرنا الليل مع الأوتار

لكن ربيع الروض إنهار

وإنفضى النور، وخلّى النار...

من الطبيعي أن تسمو صورها الصوفية البديعة. لكن الصـــدق الذي يتجسد في نفسية الشاعرة يجسد لنا الضعف الإنســـاني الـــذي يحيط بالمرء في محنته بانفعالات شتى يكشف عن النفس البشـــرية بكل دلالاتها المختلفة فتردد بين اليأس والرجاء، بين الضعف والقوة بين الضياع والإيمان، بين الصبر والإلحاح، بين القنـــوط والأمـــل

المشرق ثم تستسلم للمصير النهائي للإنسان، وتعود لتناجي الـــذات الإلهية وتشكو همها وحرقة لوعتها في أنا والغيب. وتجسد الإيمـــان في أعلى درجاته تارة وتتساءل تارة أخرى.

كيف يا قلبي تفردت بألوان العذاب
واحتلمت العيش مُراً، وشربت الكأس صابْ
ولماذا أوصد الغيبُ بوجهي كل باب
وسقاني الهم واللوعة من غير حساب
رب غفرانك إن كنت تجاوزت الصواب
وأسأت الظن بالغيب، وأخطأت الخطاب
رغم إن النور في أعماق أعماقي مذاب
لم يحرضني ضلال، أو يساورني ارتياب
أو يحركني إلى ذاتك لوم أو عتاب
فأنا من هرم الإيمان في أعلى رحاب
بيد إني تهت يا ربي في درب الشباب
واكتست أجمل أحلامي بمسودٍّ الضباب
وذوت بي زهرة العمر، شجوناً واضطراب
يا إلهي هل قضى أمرك في أم الكتاب
أن أرى أحلام عمري، في رؤى الوهم سراب
وأمانيَّ نجوماً نائهات في السماء.
يا إلهي... كم أناديك فهل لي من جواب

موهوبة تلك الإنسانة التي تلهمها فطنتها وتتقن قريحتها اختيار الأشياء من الطبيعة في عدة وجوه مختلـــف الأشـــكال. فتتصـــاعد إيحاءاتها الصوفية وتتجه إلى السماء علّها توصل توسلاتها إلـــى الله.

فوحده الخالق وهو الذي يقدّر الأعمار نسأل السماء أن تمطر لعـــل المطر يطفئ نار اللوعة في قلبها. ولعله يحولها إلى خبز كما هـــو فيزداد عطاؤها للجائعين والظامئين. ثم تربط غزارة المطر بغـزارة دموعها وصوت الرعد بصدى الهياج العاطفي الذي يضج بصدرها. ثم يغمرها اليأس وتفقد كل طعم الحيـــاة. وهكـذا تتوالـــى عليـها العواطف استسلاماً، ويأس ضعف وقوة. تخاطب المطر:

أمطري

أمطري... أمطري يا سماء
فمأساتنا في الليالي سواء
ونوحي معي بعد فقدان من
نذرت له طول عمري البكاء
ارعدي... إسمعيني صدى
أناتي... فإني فقدت الرجاء
وأصبح دمعي لا ينتهي
ولن ينتهي قبل يوم اللقاء
أجـــل..
حطمي كل شيء هنا
فمن بعده كل شيء هباء
أجل أمطري... ذوبيني أسى
خذيني بسيلك قطرة ماء
لعلي أسيل على قبره
وأسقيه من لهفتي ما أشاء
لعليّ أسقط في قفره

فأحيي الجياع، وأسقي الظّماء
أمطري يا سماء.

طلبات متلاحقة من السماء، مكابرة على النزف والجـــراح، فضياع الرجل وفقدان الأمل موت بطيء للنفس البشرية، لتبرأ بالهزة العنيفة ثم تتحول إلى لا مبالاة لكل الأشياء ثم إلى كراهية كل الحيـلة بكل معانيها ومن فيها من أصدقاء وأناس ثم تتحول عنـد الشـاعرة الكراهية إلى نقمة على سلبيات الحياة والناس الذين لا وفاء لـهم ولا خير منهم يُرجى. ثم تطلب المزيد من المطر كي تُطهّر نفسها ومـا جاشت به من أحقاد وأضغان ومعان وصور لتفاهة الحياة ثم تـؤوب في النهاية إلى الخالق فتستكين وتضعف ويتوهج الإيمان في قلبـها ثانية وينتعش الأمل. صور درامية أليمة تبعث القشعريرة في نفـس وروح القارئ فيؤلمه ألمها ويعيش معها حالة اليأس فيثور وتختنـق الكلمات في العيون. ثم لا يلبث أن ينشرح لإشراق الإيمان والتسـليم للخالق..

فإني فقدت المنى والرجاء
فغدت الذي كان فيما عشقت
أرق المعاني وأحلى العطاء..
أجل... زلزلي الكون... إن بـقلبي
زلازل هوجاء تلبي النداء
لقد حجب الحزن عني الوجود
وأمسيت لمشتاق خصن الفناء
كرهت الحياة وما في الحياة
كرهت الصداقة والأصدقاء

كرهت التفاهة والتافهين
وفرط الجحود.. وشح الوفاء
فهاتي سيولك... أخمِدُ حقدي
على الحاقدين... على الأشقياء
وأنزع موقعهم من ضميري
وأطفئ ثورة هذي الدماء
ويسجد صف دموعي لربي
وأرجعُ في نوره للصفاء
لعلك يا رب ترحم ثُكلي
وتنزع من شوكه ما تشاء

لا يسعني إلا أن أعود للتذكير ببعض التراكيب والعبارات التي تتقن الشاعرة طريقة استعمالها كما تجيد في كيفية تسخير الكلمة للمعنى الذي تريد فمثلاً: أسيل على قبره، أسقيه من لهفتي، أسقط في قفرة، أحيي الجياع، أسقي العطاش، هاتي سيولك، أخمد حقدي، أطفئ ثورة الدماء، يسجد صف دموعي، أرجع في نوره للصفاء، ترحم ثُكلي، تنزع من شوكه ما تشاء. نلاحظ بأن كل التعابير السابقة تعبر عن مكنون الكرم والعطاء، ما زادها الألم والفاجعة إلا محبة وإنسانية وإحساساً بآلام الآخرين ومعاناتهم.

ثم تنتقل للمناجاة التي لا بد منها لكل إنسان في حالة فراق عادي. فكيف إذا كان الفراق بيد الموت. إنها إيحاءات تتنفس من خلالها معنى الصبر بطريق غير مباشر لكنها لابد لذاك الكم الهائل من العاطفة الساخنة من أن تتفجر على صفحات الورق لعل النسيم يحملها إلى رياض فلذة الكبد الذي استحوذ على كل معاني حياتها

وجزئياتها ومن ثم رحل. تصف لنا ما حل بها من همـــوم ودمـــوع وآهات تنفجر كالبراكين. لنَستعرض مع الشاعرة:

أنت... يا من كنت في ليلي مصابيح نهار
أنت... يا من كنت في صحراء أيامي إخضرار
لا تسلني عن همومي، فهي من غير قرار
لا تسلني عن دموعي، إنها ماء ونار
تلتقي فيها البراكين بأمواج البحار
وأنا أرضي ابتساماتي عل الحزن ستار
لا تسلني، ماتت الألفاظ... وانقضى الحوار.

إنه الأمل الذي يبقى مشرقاً حتى فـــي صورهـــا الدراميـــة. وعتابها للقدر ولومها له عليه ما هو إلا شحنات مزمجرة من العاطفة تخرج بأشكال متعددة. فمرة تقسو وتعاتب القـــدر وأخـــرى تنـــاجي الحبيب وثالثة تهدأ وتعود للإيمان وفي جميع قصائدها لولدها عـــودة إلى القضاء والقدر. وحكمة الله عز وجل..

وأحاط السجن الضاري بقلبي كالسوار
وغدا بيني وبين الدهر من بعدك ثار
أيها القاس... الذي استحكم في القلب فجار
إن قلبي لك في صبوته... أكرمُ دار
إنه روض زكي الزهر، قُدّسي الثمار
إنه يحيا على حُلمِ لقانا في إنتظار

ثم تخرج من دائرة نفسها وذاتها، ليأتي دور الرفاق في الحي، وأبناء جيله الذين يجددون لها المصاب، ويثيرون التساؤلات والألـــم لكنها لم تستطع أن تكتم السر، والحكمة الإلهية ثـــم تجيـــب علـــى

تساؤلات الجيران أقرانه بقسوتها البالغة التي يؤججها لهيب الفـــراق وغدر الزمان، وحرقة البُعد فتقول:

رفاقك الصغار يسألونني ما الخبر ؟.
شهران مرا والمبارك الحبيب ما ظهر
فإن أقل: مسافر... قالوا: إلى متى السفر؟.
قد أقبل الصيف على شاطئنا... وما حضر...
أيها الصغار... هكذا قسا بنا القدر
وهكذا اغتال أعز ما لعمري أدخِر
وهكذا طوى حبيباً كان في عمر القمر
وهكذا أضرم في قلبي اللهيب المستعر
وهكذا هوى الضياء من سمائي وانتحر
لكنما ريبُ الزمان لا يُرد إن غزر

ثم تعود لمناجاة الولد الحبيب لتشرح له ما آل إليه الحال فـــي غيابه ومن ثم تعود للهدوء والإيمان والتسليم لحكمة الخالق..

يا ولدي... أما ترى دموع قلبي كالمطر
أما ترى عودي القوي... وغض آمالي انكسر؟.
ورحت أهوي بالمنى من قمةٍ لِمُنحدر
رحماك ربي... ومتى يكون يومي المنتظر
فقد غدا فوق إحتمالي عيش أيام أخر
رفقاً بقلبي، فهو لولا عمق إيماني كَفَرَ

لنبقَ مع تداعيات صور الولد الفقيد في دنيا الشـــاعرة التـــي بدأت تأخذ دوائر أكبر مساحة وأكبر عمقاً فالهوة تكبر كلما خرجـــت من نطاق الذات. في قصيدة أخرى تصور لنا الشاعرة بعضـــاً مـــن

أماني ولدها وما كان يخطط لأجله في المستقبل من بناء بيت فخـــم وحديقة غناء كي يكمل دورة حياته فيتزوج ويستقر وينجـــب إلا أن القدر خطط عكس ذلك لكنه لم يحرمه من السكن في تلـــك الأرض إنما بشكل مختلف. فقد سكنها تحت التراب علّه يبعث الدفء والحياة في تلك الصحراء الجرداء بدلاً من أن يسكنها في القصر المنيف إنها صورة حية لفاجعة كُبرى لتلك الأم. لكن الله عز وجل اكتنفها بحلمه ورحمته وأنزل عليها الصبر والسلوان كي تستمر بالحياة فالمصيبـــة قاتلة لنبق معها في وصف هذه المرحلة.

أترُى تذكر مرآتي شجرات البرتقال؟.
في جوار الهرم الشامخ ما بين التلال
حيث كان اللهو يحلو لك في تلك الظلال
بين أترابك في البيت، وفيهن (نوال)
ها... هنا يا ولدي، نورك عن دنياي مال
ها... هنا غُيبتَّ عني... وتوسدت الرمال
حين كان القمر المخزون يمضي للزوال
ها... هنا يا ولدي... كان لنا أحلى مقال
طالما حدثتني عن أمل حُلو المنال
عندما تصبح من عمرك في سن الرجال
تبتغي السكنى بهذا البيت.... في حضن التلال

بعدما تغرق العائلة في أوهام الأحلام ويبنون ويخططون. فجأة يهدم الموت كل الأحلام ويُبيد كل الأماني. يطفـــئ نـــور الســـعادة، ووهج الحياة بذاك القبر الذي سُجي به صاحب البيت وهو في ســـن الورود في ريعان الشباب. تتألم الأم وتندب تلك البقعة من العـــالم.

وتطفي أشياء الطبيعة ومفرداتها حركة كونية مستمرة علـــى تلـك القصيدة.

آه... كم تغرقنا الأوهام في دنيا الضلال
فإذا الماء سراب... وإذا الشط مُحال
وإذا البيت الذي كان لأحلامي مَجال
يغتدي قبراً لأحلامي إلى يوم المآل
هل بنيناه لكي تحجبه هوج الرمال؟.
هل زرعناه لكي تُسقيه الدمع المُسال؟.
ليت هذا البيتَ لم يخطر لنا يوماً ببال.

تركب الشاعرة موج المستحيل، تحلق في اللاوقـــع، تنحـي مفردات الطبيعة في هذه القصيدة لتستعمل أحداث وشواهد التـــاريخ منذ الجاهلية مادتها الخام ثم تنسج حولها المعاني لتعبر عـن مـدى ألمها والحزن الذي حل بها، نرى في قصيدة /ليت/ تسابقاً طردياً بين الأماني وعمق الألم. فكلما اشتد إوار المصيبة ونزف الجراح، كلمـا ران على النفس البشرية الضعف واليـأس، والقنـوط والشـكوى، وشاعرتنا من خلال ذلك تجيد التحليق لتوظيف الأماني فـي طلـب المستحيل لتقديمه وفاء لذاك المصاب لنشاركها بداية ليت مستحيل.

ليت أمي ولدتني في زمان الجاهلية
بين قوم يئدون البنت في المهد صبية
قبل أن تُصبح أماً ذات أزهار ندية
وتذوق الثكل، والسقم، وألوان البلية
ليت أمي ساعة الميلاد كانت وأدتني
ولدتني لأعاني قدري إذ ولدتني

ليتها بين رؤى أحلامها ما نشدتني
المآسي حطمتني.. والرزايا بددتني.

عودة لاستعمال مكونات الحياة في الطبيعة. ثم مبالغة في طلب المستحيل كلها تعبر عن عمق المصاب وتؤكد بأن الإنسان وإن تناسى بعض الشيء إلا أنه لن يمحو ما حفره الزمان. وهناك مثل أو حكمة تقول (كل شيء يولد صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تولد كبيرة ثم تصغر) لكنها لن تزول وهذا ما نراه في قصائد الشاعرة بعد أن تهدأ ويمنحها الإيمان الصبر والتسليم بالواقع. تجدد المصاب في كل دقيقة تمر بها بشكل آخر وتعبير أجد.. تعود إلى مخاطبة القدر..

ليت ربي حين قدر لي هذي الحياة
لم يضعني بشراً يحمل في القلب آساه
بل فراشاً في الفيافي، أو نباتاً في الفلاة
أو شعاعاً في الدياجي، أو غناء في الشفاه
ليتهم سلّوا عيوني.. ليتهم أنهوا مطافي
قبل أن ينزع مني الدهر أعماق شغافي
ثم يلقي بي إلى الوحدة في سود الضفاف
ليتنا نحيا مدى أيامنا للأبد
كلما أنظر... ألف في جواري ولدي
وألاقيه بحضني... كلما امتدت يدي
وأنا آمنة فن غدر يوم وغدي
ليت باقي العمر لا يعدو سوميات قصيرة
ثم أمضي لرحاب الله في أحلى مسيرة

لألاقي عنده من كان للقلب آثيرة
وأناجي سحر عينيه، وأستاف عبيره

ثم تتصاعد الإيحاءات الصوفية. وتتجاوز الأفق وتصعّد الخيال ليصل إلى ما بعد الموت وبهذا تخرق المجال المادي وتصل إلى ما وراء الحُجب الآلهية. ثم تناجي الإله عله ينقلها إلى مكان ولدها علّها تجتمع به. وكأن ساحة اللاشعور عندها كأم ترفض تصديق الفراق الأبدي وترفض الإذعان لذلك. فنراها تتوسل لله عز وجل توسلات مستحيلة المنال. لكنها صور إبداعية وزفرات متواصلة اللهب كالشعاع، محرقة كالنار لما تعانيه تلك الأم من بركان العاطفة والإنسانية المرهفة لفقد وليدها. إذ تقول:

ليت إن المرء منذ البدء يدري قَدَرَه
فهو لا يُفجأ عند الحادثات المنكرة
وقبول الصبر تعدو فتقّفي أثرَه
ويرى الأحداث منذ المهد حتى المَقْبَرَة
ليتنا ندرك ماذا... خلف أستار الرواية؟.
بعد أن يستأثر الموت بأبطال الحكاية.
أقنعاً ثم بعثٌ، ونشورٌ، وبداية.
تجمع الأحباب في ظل حياة الا نهاية..
إن يكمه هذا... فيا رباه عجل بالمصير
وأجرني من عذابي.. أنت يا خيرُ مُجير
قرب الموعِدَ يا ربي إلى يوم الأخير
هاتِ يومُ البعث، واجمعني بمحبوبي الصغير

بدأت مصيبتها كبيرة لكنها لم تصغر بل قد يخف إوار النار

قليلاً فتهدأ وتعود للإيمان للمناجاة الهادئة الرقيقة، وتستسلم للواقع رغم مرارته وقسوته لكنها وكما عرفناها في جميع الأحوال والمواضيع إنسانة لبقة رقيقة يكسو قلمها الإتقان في الأدب أدب التعامل مع الآخرين، والإحترام لهم أو التهذيب. وفي قصيدة (لا تلمني) منتهى التهذيب الأخلاقي إذانها تعتذر رغم المحنة والمصيبة عن إحساسها بالألم. ولبسها السواد مخافة أن تسيب أي إزعاج به. إنها تتربع على قمة المجد الخلقي والأخلاقي والأدبي والعائلي. ورغم ذلك فهي قمة في التواضع والإحساس بمشاعر الآخرين. في قصيدة لا تلمني إعتذار واستسلام كامل للإيمان والقضاء وحتمية الحياة إلا أنها لم تخرج من دائرة الألم وكلما تعمقت في الألم تعمقت في الإعتذار أو التوسل أو الغوص في شعور الأنا. لنبق مع سحر كلمات وتعابير، لا تلمني.

لا تلمني يا حبيبي إن توالى ألمي
و إكتست نضرة أيامي بلون الظلم
فتطلعت إلى الحبِّ الحنون المنعم
وترامیت على حضنك... ألقي ضَرَمي
ولمن أشكو عذابي؟ وعلى من أرتمي؟.
فأنا لا أملك إلا أنتَ... من مُعتصم
أنت أدنى لي بعهد الحب من ذي رحم
فتقبل بعض همي... وتحمّل لممي
أنت أمي، وأبي، أنت حبيبي توأمي..

ثم تتابع القصيدة بنوع من الاستغاثة، هجوم عنيف على الدهر، واعتراف ضمني بضعف المرء أمام قضاء الله، ثم تنادي

ادركوني قبل فوات الأوان، أعيدوا لي الأمل. إنه اعتراف حقيقي بأن الحياة لا تقف عند شيء فدولاب العمر يدور مهما كانت الأحداث والمصائب. وألأفراح والسرور. ولا تكتمل دورة الحياة إلا بإتمام الطبيعة البشرية والتقاء الطرفين الرجل والمرأة.. فقد رأيناها في نافذة تمرد إنها تحارب التسلط وتحاول الفرار من السجن والعبودية من نير الرجل الحاكم.

وهنا نراها تستعين به بالرجل كي تتخطى محنتها وهذا كما ذكرت إعتراف بوحدة الحياة البشرية بين الرجل والمرأة وإن كل منهما يكمل الآخر فيما إذا كان الطرفان من نفس الأخلاق والمفاهيم. تتابع.

آه لو تعرف مآساة طريقي المظلم
كيف أرويها وقد بدد بأسي كلمي
كيف أحكيها وقد مات حديثي في فمي
وإستباح الصمت لحني فتهاوى نغمي
وعدا الدهرُ على ضعفي بعنف المجرم
ومضى يحصدُ من ليلي ضياء الأنجم
ثم القاني مدى العمر بليل معتم
ائتني في زهرة العمر، فأدرك برعمي
وأعد لي بهجة العيش، وسحري الملهم
وتخطر في شبابي، كرقيق النَسمِ
وتألق... في ربيعي بجميل النَعَمِ
وترنم بأغانيك بنجوى المُغرَمِ
وارتفع بي من ثرى اليأس، لأعلى القمم

تتوالى الإيحاءات الصوفية، لكن بعد أن تمكن الإيمـــان مـــن فرض الهدوء على تأجج اللوعة في قلبها والاستسلام لمشـــيئة الله... جاءت قصيدة إيمان لتتوج قوة الإيمان للخلاص من العذاب. لكنها لم تزل تئن بأثر الإنفصال. فقد كان لها ولدها الرجاء والأمـــل، والأب والأخ والصديق، لا بل كان كل جزء من خلايـــا جســـدها، وتـــاج الإمارة على رأسها، كان لها الإلهام والإبداع، والأماني، كان الحلـــم الجميل ونور العيون، كان ترتيل الصلاة. وفجأة فقدت كل شيء كان لها. فلم تعد ترى إلا الظلام، واليأس، والضعف، والدموع، والألـــم، وكل مآسي الحياة تجمعت وإنهالت على تلك الأم وحتى على بـــاقي أولادها بفقدان ولدها ثم تنتقل لمعاينته وسؤاله هل يعلم ماذا حل بأمه بعد رحيله؟. إن كان فليسأل الرحمن، تقول:

لا تسل عن لون مآساتي ومجرى عبراتي
لوعة لم تدرها قبلي ثكالى الأمهات
ولدي كان حبيبي، ورجائي، وحياتي
ولدي كان أبي... كان أخي... بل كان ذاتي
كان لي تاجاً على رأسي كتاج الملكات
كان الهامي، وإبداعي، وأحلى أغنياتي
ولدي كان سنى عيني، وحُلمي في سُباتي
ومتاعي في وجودي، ودعائي في صلاتي
كل هذا ضاع من كوني بإحدى الغفواتِ
كل هذا لم يعد لي منه غير الذكريات
غرفة تبكي على سيدها بالحسرات
كتب تسأل عن صاحبها أنىّ مواتي

آه من ناري، ومن يأسي، ومن ضعف ثباتي
لا ترى عيناي غير الليل يا نور حياتي
وصغاري في رحى المحنة حيرى النظرات
سألوا: أين أخوهم... أهو ماضي؟. أهو آتِ؟
قلت: والدمع السخين ذائب في نبراتي
إنه في الغيب... بين السحب.... فوق النبرات
ولدي ليتك تدري كيف باتت أمسياتي
فسل الرحمن في أيام عمري الباقيات
رحمة منه، تعذبني إلى يوم مماتي
إنه إيماني بربي وحده، طوق نجاتي

الصبر دواء لكنه مر المذاق، عسير الهضم، وقد خيم على بعض العواطف عند الشاعرة، فحدّ من هياج البركان، لكنه لم يستطيع أن يُخمد نار الكلمات التي تمتزج بذكر واسمه، وحركاته لتنبثق صرخة من أعماق الزمان، وآلام الحياة. ثم تعود للدعاء والتوسل إلى الله عز وجل أن يطيل صلاتها وخشوعها ويخفف من عذابها.. في صلاة..

كلماتي مرة كالصبر، حرّى كدموعي
منذ أن جارت يد المنون على أغلى شموعي
ورحى المحنة لا تنفك عن سحق ضلوعي
آه... من وحشة أحبابي، ومن فرط نزوعي
آه... من صرخة أشجاني، وأنات ولوعي
يا إلهي... اقبل صلاتي، وإمتثالي، وخشوعي
فهي قرباني إلى ذاتك، في شوقي وجوعي

للقاء إبني الذي راح إلى غير رجوعي

في النهاية إستطاع الإيمان والصبر اللذان تشبثت بهما الشاعرة أن يعيد الحياة إلى مجراها... وتغلبت بالعقل الراجح وعزيمة التسليم للخالق، على الضعف والوهن واللا مبالاة التي إجتاحتها. عودة إلى الصفاء، والنقاء، الإنسانية والشفافية بعد أن تسلل الشفاء إلى نفس الشاعرة، بدأ نور الإيمان يتسرب إلى الدهاليز التي حفرها الألم، وإلى الجروح النازفة، ليرمم ما أفسده المُصاب بدأ الإشراق يحل محل الظلام الذي غزا كل شرايين قلبها، والأمل يطرد اليأس من حبور نفسها وبدأت معركة النشوة الصوفية إذ أن فناء الذات بالآخر يعني فقدان الإثنين معاً، الوعي بالذات وبالآخر وبالتالي تنتفي النشوة والتجليات الصوفية التي يسعى لتحقيقها الصوفيون. إذ أنه كلما اقترب الحب من الذات الباطنية العميقة للشخص المحبوب شعر الإنسان بالإختلافات الجوهرية التي تفصل الأنا عن الآخر.

وهنا نرى أن الشاعرة وصلت تلك المرحلة، واستفز الأنا الذاتي لبعد المسافة واستحالتها عن الآخر (الابن الحبيب) بقيت تتأرجح بكل الإيحاءات الصوفية. الشكوى والأنين، التساؤلات والابتهالات، والصلاة والدعاء، ثم تثور على كل العالم من حولها وتهدأ تيأس وتأمل، تبوح وتصمت وتصرخ، عدة سنين عندما بدأ النور يعود للعينين اللتين قبع فيهما الظلام وبدأت الحياة تدب في الشرايين النازفة وتحول مكان الحروق إلى رماد دافئ فعادت الحيلة تورق في الرماد من جديد وأمسكت القلم ونطقت من خلاله وانحلت عقدة لسانها وأفرغت كل عذاباتها وآلامها، وما تكنه نفسها، وما

جادت به أحزانها وبلواها من تعبير على صفحات الورق كي تنشر للعالم كله كيف يُبدع المرء حتى في أحلك الظروف وأشدها مرارة، وكانت نهاية صمتها وجريان عواطفها في ديوان (إليك ياولدي) وبدأت بمقدمته فكانت بوحاً وشكراً للقلم الذي ساعدها في وضع حد لبداية النهاية. نهاية الصمت، واليأس، والقنوط، والظلام فكان البلسم لجراحها والضماد لأنينها، والحنان والمداد لكلماتها، والإشراق والتجلي لموهبتها، وقرباناً لروح فقيدها. وصحوة لثباتها، وقطرات غيث لصحرائها، ودماً يجري في حروفها، وألواناً تلون صورها. إذن لنبقى مع مقدمة ديوان إليك ياولدي – والتي حققت لنا وأبدعت كل ما قدمناه عن تلك المأساة.

أي بشرى قلمي لاغى، وناغى، وتكلم
بعدما إستسلم لليأس وأغفى وتأزم
خلته مات، ولكن كان في صمت ملثم
ثم وافى بعد عامين بشجوني يترنم
أي بشرى، عادت الآمال في أفق حياتي
وانتشت روحي وغنى قلمي بعد سُباتِ
ها أنا أمطره اليوم أحرّ القبلات
قلم الشاعر لا يعرف معنى للممات
قلمي بلسم همي وضماد لأنيني
يبعث النشوة والآمال في قلبي الحزين
كلماتي نفثات من حنان وحنين
وحروفي لمحة من طلعة الحق المبين
هاك شعري، وسأتلو لروح ابني الحبيب

ولأهلي ولأحبابي وللحق السليب

سوف أرويه بدمعي الثاكل الثر الصبيب

وأنا في غرفتي، آواه من عيش الغريب

ثم تناجي القلم الذي يترجم ضربات قلبها على الورق، وإحساس نفسها، ومشاعر أمومتها، يشاركها الألم، ويخفف عنها العذاب، وينتشلها من الغرق في وقت الصعاب تقول:

قلمي أنت صديق العمر، يا نعم الصديق

أنت لي خيرُ رفيق إينما عز الرفيق

كلما شب إوارُ القلب أطفأت الحريق

وإذا لجّتْ بي الموجات أنقذت الفريق

ثم تثني عليه فهو الوحيد الذي يقاسمها آلامها وآمالها. حزنها وفرحها دون أن يتذمر أو يخذلها إذن هو شريكها الوفي الصادق وأمين سرها وناقل إحساسها لتبقى مع شريكها:

أنت قبل إبني وبعد إبني خِدنّي

وشريكي في الذي تسمع مني

أنت في المآساة كم تحتمل الآلام عني

وإذا ما ابتسم الدهر أغني فتغني.

مما تقدم رأينا إن لفيض إنسانيتها، ودفق حنانها، ورهافة إحساسها دور مؤثر، ونبض ساخن، وصور درامية مؤلمة في الرثاء، فقد أجادت كعادتها في نقل القارئ إلى حالة الحزن التي سيطرت عليها. بإسلوب هادئ ومثير مسخرة لذلك أدوات الطبيعة التي تمدها بالجديد وبالحركة ضمن الرومانسية الخلابة التي أضفت عليها الشاعرة جمالاً وهاجاً في جميع أبواب الحياة ونوافذها التي

أطلت علينا منها..

في نهاية هذه الوقفة القصيرة مع الشاعرة سعاد الصباح والغوص معها في بحرها الواسع وخضم عالمها الخاص. لابد أن أنوه وأذكر نبل أخلاقها عندما تندس بين أضلع وحنايا الآخرين المُعَذبين المتألمين. لتهون عليهم فراق الحياة المر، وتحمل ولو عبء صغير من همومهم وأحزانهم. تشاطرهم الحزن والألم، والسعادة والسرور فترتقي بذلك إلى أسمى درجات الروحانية تتخلص من عالمنا المادي المحسوس. لتشارك الروح بصدق النقاء، وحب العطاء فحب الروح أزلي وحب المادة اتي فتصف لنا قصة قصيرة في إحدى مشاركتها أحزان امرأة كانت تعمل غاسلة ثياب فتصف لنا شكوى المرأة، وصراخ محياها. وذوبان كفيها، والماء والصابون خدناها تشكو للرحمن بلواها أولادها ستة، وزوج مريض أقعده الهزال، فزاد في عبء الحياة، شقاءها قدرها، وكيف تحولت إلى ضعيفة أوهى الكد والتعب جسدها وحولها إلى مريضة أيضاً. وقفة مع تلك المرأة مرآة صادقة نراها أمامنا ونتحسس مواجعها.

ديوان قصائد حب

من سماء القطر الكويتي الشقيق شعّت نجمة، فوصل ســـناها إلى سمائنا قبس إنبثق من قلب الظلام فبدا أشد ضياءً وأكثر توهجاً.

من قلب الصحراء، ومن عفوية الكثبان الرملية اشرأبت زنبقة عطرة سرعان ما تحولت إلى واحة غناء... تُلقي بظلالـــها الكثيفـــة متحدية شدة الهجير.. ورمضاء العقول..

امتشقت تلك النجمة حسام الحرف القاطع لتشق بـــه طريـــق الحق الموصد.

حقاً إن في كل خلق. تمزيق وحياة. (أي نهاية وبداية) تمزيـق ونهاية للجدار الذي يحوي الخلق. وبداية للمخلوق الجديد.

نرى عملية الخلق هذه متجسدة في صفحات ديـــوان الســـيدة الشاعرة سعاد الصباح (قصائد حب) فيها تمزيـــق لكـــل العـــادات والتقاليد، وتحطيم للقيود والقوانين الكثيفة الملتفة حـــول الأعنـــاق، والدساتير التي تكم الأفواه. ثم إنطلاقة فريدة للتحرر من كـــل هـــذه القيود. فيها خلق لقفزة نوعية. في عالم المرأة المعاصرة.

قصائد حب عنوان واحد لكل القصائد. إلا أنها تحمل في كـــل شطر منها ثورة وفي كل ثورة إباء فيه كل الشموخ والعطاء. إبـــاء المرأة الذكية الناضجة. فيه تحول جذري من الضعف والاســـتكانة. إلى القوة والتحرر. فيه رسم مجسد لطريق الصواب، ونـــداء مـــن الأعماق – أعماق القرون الماضية – لتعرية التزمت وكشف عوراته الراسخة في العقول. فيه جميع أنواع هياكل الحب المقدس في جميـع أشكاله ماراً بالأمومة المعطاء..

لقد حمل الأثير إلى تلك الصحراء صوات النساء المحجـــوز عليها. فتلقفتها آذان الشاعرة وضمتها إلى صوتها فشـــكلت بحـــراً

هادراً. وبركاناً ثائراً. ثم غمست يراعها في قلوب هـؤلاء النسـاء. وترجمت نبرات أصواتهن المبحوحة. فانسكب مداده مـن صـدق سريرتها، ومن لهيب ثورتها ومن أعماق أنوثتـها الصافيـة كمـاء الغدير العذب...

حمّلت ديوانها ثمان قصائد تجسدت فيها مراحل ثلاث..

مرحلة الثورة والتشكل، مرحلة الأمومة، مرحلـة الاسـتقرار والتوجيه.

في كل مرحلة منها سـنفونية يحـول دون وصفـها جميـع الحروف، ودون عزفها جميع الأوتار، إلا أوتار قلوب النساء اللواتي تتكلم بلسانهن. وتنصهر في قلوبهم، وتذوب في عيونهن.

عذوبة.. وقبساً.. وإشراقة ربيع تطل عليهن من قلب السـراب تحمل كل ألوان المتعة، والاستجمام، ورجـع الصـدى لأقلامـهن الخرساء. وقلوبهن الممزقة من فرط الاحتشاء... وأرواحن الشـاردة تبحث عن طلقة بندقية لثورة حقيقية للإنعتاق مـن كـم الأفـواه.. وجبروت مملكة الرجال لنبدأ من المقدمة.

لن أغالي إن قلت بأن مقدمة الكتاب هي إختصـار لمؤلـف تاريخي ضخم يحاكي معاناة المرأة من قرون، ففي كل جملة منـها إختزال لمئات الصفحات، وحصر لعدد لا يحصى من المعاني مثـال صغير..

(المجتمع العربي يعتبر المرأة الفصيحة ظاهرة شاذة)..

كم تحوي هذه العبارة بين أحرفها القليلة من شرح وتفصيـل ومواقف وتنوع وأشكال. ومضمون هذه الظاهرة.

وكم يرقد بين طيات تلك المقدمة. من آهات مدفونة، وينـابيع

غائرة وصرخات خرساء عبر القرون الطويلة..

تتمنى الشاعرة في جملة أخرى أن (لا تبقى المـــرأة مجـرد مستمعة لاسطوانة الحب الذي يعزفها الرجل ليلاً نهاراً).

هنا أقول حتى هذه الاسطوانة قد بُترت ولم يبق منها ســـوى مقطع مبحوح ولفترة وجيزة، ثم تتحول تلك الاسطوانة إلـــى مكـــان آخر. هذه أيضاً من تعاظم وتنامي مملكة الرجل.

تحاكي الشاعرة في المقدمة أيضاً (الصيادين بأن يسمحوا لـــها أن تغني كالعصفورة دون أن تقتلها بواريدهم)..

وهنا أعلق أيضاً. بين الحين والآخر يصدر قراراً يمنع الصيد فترة من الزمن..

أما الآن فقد ألغي قرار منع الصيد وعاد الصيد أشد وأقســـى من سابقه عاد هذه المرة بطريقة أخرى. لقد إســـتطاع الصيـــاد أن يعمل (غسيل مخ) لتلك العصافير. وإستطاع أن يقتلها دون ســـلاح ودون جهد فقد قتلها بإرادتها. نعم غسيل المخ لغة جديـــدة للصيـــد والقتل... وحجز الأصوات. ولقد أعيدت السنتمترات التي أزيحـــت في بداية هذا القرن. أشد سماكة، وأدكن لوناً. وأكثر مفعولاً..

تطالعنا القصيدة الأولى بـــالتحرر مـــن القيـــود. والايحـــاء لمخزونها العارم. وإعطاء دلالات على ذاك النبع لمغطـــى بكثبـــان الصحراء. ثم تتحول تلك الدلالات إلى تفجير فوهات بركانية تخالف براكين العالم في الدمار والحرائق. لتطفي على عالم الأدب ريـــاض غناء فيها كل ألوان الأزهار المورقة. والنفحات المنعشة للروح. فيها تفجير لعاطفة سامية وميلاد جديد للحرية. تقول:

أريد أن أكتب

لأتخلص من فيضاتاتي الداخلية
التي كسرت جميع سدودي
أريد أن أتخلص من هذا الفائض
الكهربائي
الذي يحرق أعصابي
ومن هذه البروق
التي تركض في شرايييني
ولا تجد مكاناً تخرج منه.
أريد أن أكتب
لا لأرضي نرجسينك، كما تظن
ولكن لأحتفل
-ربما للمرة الأولى -
بميلادي كإمرأة عاشقة...
وبتفجير إنفعالاتي في وجه هذا العالم

إن حسام الحرف بين أنامل الشاعرة أمضى سلاحاً. وأشد وميضاً – من السلاح الذي يبتكرونه يوماً بعد يوم في هذه الآونة – في إيقاد شعلة الثورة وكسر القيود وتحطيم الحواجز والتحرر من الاستعمار الأزلي الرابض على شرايين المرأة.

ونخطي الصعاب بغية الوصول إلى التحرر الحقيقي الذي تثبت به وجودها على خارطة الأدب والفكر. فلها ما لسواها من الحق في حجز زاوية من تلك الخارطة توشيها أنامل إمرأة جريئة. تتحرر دون وجل أو خوف غير آبهة بما سيصيبها من نصال الألسن وجذوة الأقلام.. نعم هناك نساء شغلن زاوية لكنها لا تكاد تُرى أملم

ذاك الكم الوفير للرجل.. فخرجت كلماتها اللاهية تفعل فعل المدافـــع .. لا البندقية. إذ تقول..

أريد أن أكب
لأدافع عن كل شبر من أنوثتي
أقام به الاستعمار..
ولم يخرج حتى الآن..
فالكتابة هي وسيلتي
لكسر ما لا أستطيع كسره
من قلاع القرون الوسطى
وأسوار المدن المحرمة
ومقاصل محاكم التفتيش
أريد أن أكتب
لأتحرر من ألوف الدوائر والمربعات.
التي رسموها حول عقلي
وأخرج من حزام التلون
الذي سمّم كل الأنهار
وكل الأفكار
وأجهض ألوف الكتب
وألوف المثقفين...
فالآخرون...
منذ خمسة عشر قرناً
يتآمرون ضد الأنوثة...
أريد أن أفتح ثقباً في لحم السماء.

فالمدينة التي أسكنها

لا تطرب إلا لصياح الديكة

وصهيل الخيول...

ثم تختم القصيدة بصورة رائعة للاصرار على الحرية. والصمود. والإرادة القوية التي لا يتسرب إليها اليأس. ولن تقهر ثانية. فهل هناك أجمل وأرق من تلك الصورة للتحدي والثبات ونيل الحرية..

سوف أبقى أصهل

مثل مهرة فوق أوراقي...

حتى أقضم الكرة الأرضية بأسناني...

كتفاحة حمراء

تبدأ الشاعرة بعد إطلاق نواة الثورة. بالتعرف على ذاتها عن طريق الحبيب، فدورة الحياة لا تكتمل إلا برجل وإمرأة. ولكن لا تريد أن تكتمل تلك الدورة تلقائياً بل تريده إكتمالاً نوعياً. قوامه الإهتمام الحبيبة وتوجيه العناية والمحبة لها وتربط ذلك بزيادة الإهتمام من الحبيب بهمسات رقيقة. ونوع جديد للإشارة إلى معاناتها أو إلى الطريقة المثلى للوصول إلى قمة العطاء والسعادة.

تتشكل أنوثتي على يديك..

كما يتشكل شهر إبريل...

شجرة شجرة

عصفوراً عصفوراً...

وكلما أحببتني أكثر

تزداد غاباتي أوراقاً..

وتزداد هضابي ارتفاعاً.

وتزداد شفتاي إكتنازاً.

ويزداد شعري جنوناً.

على يديك.

أدخل دائرة الحضارة

وأتربى على وسائد حنانك..

ثم لا تنسى أن تشكره وتقدم له كل الامتنان كي لا تفسح لـــه مجالاً للتراجع عن العطاء.. ففي الشكر له حث مبطن عليّ إستمرار الإهتمام. فتقول..

إنني مدينة لك..

بكل هذا التنوع في أقاليمي

وكل هذه الحلاوة في فاكهتي

ثم نقف معها وهي تعود إلى طبيعتها الحنونـــة. ومشـــاعرها الرقيقة حين تأخذها الرأفة والشفقة على ازدواجية الرؤيا في نفـــس الحبيب الرجل. لقد ورث من السلف ما لا يستطيع أن يتخلى عنـــه بسهولة. ورأى واقعه الذي يرغب أن يعيشه فاحتار دليله وغاص في غياهب فكره المظلم لينبش منه النور الذي يرغـــب بـــه تخاطبـــه وتمسح بيدها الناعمة مكان الألم وتنشر مشاعرها الشفافة فوق نقـــاط ضعفه علّها تعود للقوة ثانية... إذ تقول:

يذكرني صوتك

بصوت المطر

وعيناك الرماديتان

بسماء سبتمبر

وأحزانك
بأحزان الطيور الذاهبة إلى المنفى
ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك
أيها الرجل
الذي شقق شفتيه ملح البحر
وطاردته سفن القراصنة
وتناثر جسده في كل القارات
ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك
أيها المسافر
من الشتات إلى الشتات
أيها الغارق في أمواج البحر الأسود
والمصلوب على ورق الكتابة
والمطلوب حياً أو ميتاً
من كل دكتاتوري العالم الثالث

ثم ترفرف بروحها الوديعة في حناياه المتألم. تلملم الجـــراح، بصدرها الندي العاطفة وتقدم نفسها فداء له عندما تربط مصيرهـــا بمصيره..

أريد أن أدخل
في قميصك المفتوح
وجرحك المفتوح
وأكون جزءاً
من قلقك
أريد أن أخبئك في صدري

عندما تشتد الريح
وتعصف العاصفة
فإما أن أنجو معك
أو أن أغرق معك

نحط رحالنا في قصيدة الأمومة. لنعب منها أسمى مشاعر الحب وأرق معاني المناجاة لقد جمعت بين حروفها كل أطوار المرأة الأنثى. فبدت الأم الرؤوم. والأخت الحنون. والحبيبة الوفية والمرأة العظيمة. بكل ما تحمله هذه الأدوار من حنان وشموخ ومحبة وإيثار.. لكنها تحملها بشيء من الواقع المغروس في نفس المرأة منذ الأزل وهو تفخيم الرجل وتضخيم السلطة لديه والارستقراطية..

في بعض لحظات الإنخطاف
أحمل لك زجاجة (الشامبو)
وأنتظر
حتى أعطيك الشعور
بأنك أحد الأباطرة
أيها الدكتاتور الصغير
الذي يستعمل بذكاء
حناني ونقاط ضعفي
إن الأمومة في داخلي
تطغى عليّ جميع العواطف الأخرى
فلماذا أخاف عليك كل هذا الخوف
إن إحساس الأمومة نحوك
يدفعني إلى إرتكاب حماقاتٍ

لا تتناسب مع وقاري

ففي بعض لحظات التجلي

يخطر لي أن أقص لك أظافرك

وفي بعض لحظات الولة

يخطر لي أن أجفف شعرك

وأنت بين يدي

مستسلم كحمامة..

ثم تفيض أمومتها لترسم كل جزء منه جزء من أجزاء نفسها ورغم أنه كبر وأصبح شاباً.

إلا أنها لم تره إلا بعين الأم الذي هو جزء منها...

في بعض لحظات الجنون..

يخطر لي أن أقبلك..

ووجهك مغطى بصابون الحلاقة..

وفي بعض لحظات الواقعية والإشتراكية

أستعمل معجون أسنانك

حتى أشعرك

أن فمي وفمك

مزرعة تعاونية واحدة

ثم تعطيه تبريراً مزركشاً وموشى بالتسماح الذي تعج به الأمومة كرد فعل لتصرفات الطفل. وترمي بحمل لومها على الأمومة فترى كل قبيح في الطفل جميلاً ورائعاً..

إن إحساس الأمومة نحوك

يدفعني إلى إرتكاب حماقاتٍ

لا تتناسب مع وقاري

ففي بعض لحظات التجلي

يخطر لي أن أقص لك أظافرك

وفي بعض لحظات الولة

يخطر لي أن أجفف شعرك

وأنت بين يدي

مستسلم كحمامة..

ثم تفيض أمومتها لترسم كل جزء منه جزء من أجزاء نفسها ورغم أنه كبر وأصبح شاباً.

إلا أنها لم تره إلا بعين الأم الذي هو جزء منها...

في بعض لحظات الجنون..

يخطر لي أن أقبلك..

ووجهك مغطى بصابون الحلاقة..

وفي بعض لحظات الواقعية والإشتراكية

أستعمل معجون أسنانك

حتى أشعرك

أن فمي وفمك

مزرعة تعاونية واحدة

ثم تعطيه تبريراً مزركشاً وموشى بالتسماح الذي تعج به الأمومة كرد فعل لتصرفات الطفل. وترمي بحمل لومها على الأمومة فترى كل قبيح في الطفل جميلاً ورائعاً..

لن أعاقبك

على ألأواني التي كسرتها

وعلى الستائر التي أحرقتها
وعلى القطة التي خنقتها
إنني لا ألومك
على كل هذا الخراب الجميل
الذي أحدثته في حياتي
ولكنني ألوم أمومتي..

ثم تنقلنا الشاعرة إلى جوها الخاص وما يحويه من رومانسية الجو الشاعري قد يظنها البعض للوهلة الأولى نوعاً من ضعف المرأة. وعدم قدرتها على مواكبة الحياة بمفردها. إلا أنها لوحة للوفاء في قالب من الإباء وعزة النفس.

نداء للحب حريري الحروف. رقيق الهمسات. يحمل أسمى آيات الإخلاص ونكران الذات. فيه بوح سري لغطرسة الرجل. وجبروته. وميراثه المزمن.

عندما قررت أن أعاقبك
وأسافر إلى باريس وحدي
لم أكن أعرف بأن باريس ترفضني وحدي
وإن مصابيح الشوارع
وتماثيل الحدائق العامة
ستسخر مني
وتطلب من بلدية باريس ترحيلي

في المقطع التالي دعوة صريحة وجلية لتوثيق الربط بين المرأة والرجل فكلاهما متمم للآخر في دورة الحياة حلوها ومرها. سعادتها وشقائها. حضارتها وتخلفها فتتكئ بذلك على باريس أم

الحضارات وأم الاشتراكية منذ قرون. متخذة منها عذراً لذاك النداء.
إذ تقول:

فهندسة باريس الجميلة
لا تتقبل امرأة تتناول العشاء وحدها
ولا زهرة تتفتح وحدها
ولا غيمة تمطر وحدها..
فباريس معزوفة موسيقية
يلعبها اثنان..
وقصيدة جميلة..
يكتبها رجل وامرأة..
إن كل تمثال من تماثيلها
منحوت بيد الحب
وإن كل ثوب معلق في واجهاتها
مصمم من أجل الحب
لماذا لم أحترم تقاليد هذه المدينة الخرافية
التي أعطت العالم
أول درس من دروس الحب
لماذا؟ اعتديت على تناسقها
وهرمونيتها
فكنت النغمة التي لا مكان لها
في الكنشرتو الكبير

يتضخم الحب في عينيها وفي قلبها فلم تعد ترى في باريس أي شيء. لقد اختفت المعالم من أمامها وتوشح جمالها بنظره

سوداوية. وهي تتساءل ببوح من العاطفة العارمة. والشوق المتقّد

أفتح ستائر غرفتي على باريس

ولكنني لا أجدها

هل هذه باريس التي عرفتها معك

أم هذه بنغلادش

هل هذه ساحة (الفاندوم)

أم هذه ساحة إعدامي

هل هذه نوافير ميدان (الكنكورد)

أم هذه دموعي..

هل هذا قواس النصر العظيم

أم هذا قوس هزيمتي..

تحاول أن تقتل الفراغ الذي أحدثه الحبيب. فتارة تقف أمـــام النافذة وأخرى تقرأ في مجلة أو تشاهد التلفزيون. ثم تزرف الدمـوع وكلها تصرفات لا إرادية لإطفاء نار الوجد وإزالة شبح الحبيب الذي احتل مقلتيها. تعرض لنا كل هذه الصور بألطف ما صاغته حروف، وأمطرته العاطفة وخطه قلم الوفاء..

أخرج للشرفة حتى أنعش ذاكرتي

هل هذه هي باريس

التي تعلمت فيها على يديك

كيف أكتشف أبعاد أنوثتي

وأبعاد حريتي

لا تلسني عن تفاصيل رحلتي الباريسية

إذ لم يكن هناك رحلة

ماذا فعلت؟ لم أقل شيئاً

هل اشتريت ثياباً؟ لم أشتر شيئاً

ماذا فعلت إذن؟..

شتمت نفسي... وشتمتك... وشتمت

فولتير... وروسو... وفيكتور هوغو...

هؤلاء هم أرباب الاشتراكية والعدالة والحضارة الفرنسية فهؤلاء خرجوا من قلب الظلام في القرون الوسطى لينيروا طريق العدالة والحضارة. ونشر بذور الاشتراكية التي كان لباريس السبق الأول لأول ثورة اشتراكية في العالم..

ومن قلب العذاب واللوعة على فراق الحبيب ومن بركان الشوق الذي يجيش بنفسها. انبرت عزة النفس والكرامة لتخلق من الضعف قوة ومن نار الشوق تحدياً لذاك السيل العارم من العاطفة فمنعتها من البوح للحبيب. ومن استجداء قلبه واستدرار عطفه..

حاولت أن أطلبك

لأقول لك

إنك ملكي. وحبيبي. وشمس أيامي

ولكنني تراجعت

حاولت أن أصرخ حتى آخر الصراخ

أحبك..

وأبكي حتى آخر البكاء..

لكنني تراجعت

ولكنني خفت أن تزداد غروراً

فوق غرورك

ونرجسية فوق نرجسيتك
وتتركني معلقة
على حبال أحزاني
كنت أريد أن أبوح لك بأسرار كثيرة
ولكنني خفت أن تسخر من أفكاري
وتقفل الخط في وجهي

ثم تتوج قسوة الحبيب. وجليد قلبه. وتزمت عقله. وغطرسته بشفافية قلبها المتسامح. ونبل ودادها الفياض، بأسلوب غير مباشر وشفافية أسطورية الملامح. كي لا تؤذي مشاعره كما يؤذيها.

أيها السيد الذي يلعب بأقداري
كما يريد
ويخطط لأسفاري
كما يريد
لقد حملت معي إلى باريس
ملفاً كاملاً
لكل انتهاكاتك ومخالفاتك
وجرائمك العاطفية
ولكن باريس مزقت أوراقي
وانحازت إليك...

لغة من العفو. وطوق من الأعذار، ابتكارات جديدة تنير بها الشاعرة صفحات الأدب ضمن شريط من العرض ملفت للأنظار. مثير للإعجاب هادف. ومعالج في آن واحد...

في الثلاث قصائد الأخيرة... تتخذ الشاعرة أسلوب آخر ترسم

فيه الرجل، كيف تتمنى أن يكون؟ وكيف يجب أن يكـــون. وربمـــا هكذا يتمنى هو أن يكون.

وهنا تعانق الشاعرة أمواج الخيال فترســـم لنفســـها الرجـــل (الرجل) تحلق به إلى السماء. تسمو بحبه إلى العلياء.. تتفئ بظلـــه.. تستمد قوتها من ذراعيه.. تنصهر به. تتلاشى جزءاً جزءاً.. تمنحـــه وجودها.. ثم تعود للحقيقة تبحث عنه فتراه كما هو... لاهٍ، منشـــغل، نرجسي الطباع، متعدد الوجوه، متقلب المزاج فتناجيه:

أيها الرجل الذي أوصلني
إلى مرحلة التبخر... والاندثار..
إنني أحبك..
بكل عصبية البحر... وحماقاته
فلا تتضايق من انفجاراتي
فإن شر الأمور عندي، هي الوسط
أيها الرجل المنهك بنرجسيته
والمنهك بتعدديته
لاحظ لي معك...
ففنادقك دائماً محجوزة..
أيها الممثل الكبير..
الذي قتلته نجوميته
ليس لدي أمل
حتى في الحصول على توقيعك
فأنا أصل دائماً
بعد أن تسقط الستارة

وتطفأ الأنوار

وينصرف المتفرجون..

في جو من الهدوء والعقلانية وبعد أن انطلقت فعـــلاً. تجـــود قريحتها المثلى بحوار فيه نزع للأشواك العالقة بين العقل المحـــرك للأفعال وبين اليدين اللتين تتلقى أوامر العقل... فتصيغه بطريقة تكاد تذوب رقة، وعرض مخملي البطانة متدفق الحضارة.

فيه كل معاني الإنسانية والإثارة، وتسليط الضوء على الفـــرق بين طبيعة اليدين في كلا الحالتين.. فالعقل واحد واليدان ينفذان. وقد اختارت لهما طريق الخير في تلك الحوارية عندما يوجهـــها دافـــع الحب والعطاء والحرية.. بعيداً عن التزمت والتسلط والاستبداد..

أكتب هذه الرسالة لليديك..

نعم لليديك

فيداك هما أكثر منك حناناً

وأكثر فهماً لطبيعة النساء

وأسرارهن

وعوالمهن الداخلية.

أكتب هذه الرسالة لليديك

لأنني مللت من الكتابة إليك..

فهما تحتفلان ببريدي

وأنت ترمي بريدي في سلة المهملات

هما تتصرفان بحضارة

وأنت تتصرف ببدائية

هما تفتحان ألف باب للحوار

وأنت تغلق في وجهي كل الأبواب

ثم تتغزل بنقاط القوة والحماية في تلك اليدين، وربما هو شعور ضمني أيضاً في نفس الرجل بين ما يريد أن يتصرف به عندما يأخذ طابع الجد وتحريك العقل المتسلط وبين ما يتصرف به عندما يعود إلى إنسانيته ويترك نفسه على سجيتها الطبيعية دون محرض. أو عندما يتصرف بحنان ضمن رغبة ذاتية قوامها العاطفة.

احتمي بيديك القويتين
عندما لا أجد من يحميني
وأتغطى بوبرهما الكثيف
عندما لا أجد من يغطيني
وألتجئ إليهما
عندما لا أجد من يطعمني.. ويسقيني
يداك كانتا دائماً معي
في السراء والضراء
وكانتا دائماً من حزبي
يوم كنت ترعد.. وتبرق
وتتصرف كأي شيخ قبيلة
يتحدث عن الشورى... والتعددية..
والحوار المفتوح
ولكنه لا يحاور أحداً
ولا يستشير أحداً

ثم تنثر كلماتها الندية لتحريك الوجدان الإنساني وتضيء بها

الجمال والروعة الكامنة في تلك اليدين عندما تتخلصان من العصبية والتخلف..

يداك.. هما الكتابان الرائعان
اللتان أقرأ فيهما قبل أن أنام
وهما الخشبتان اللتان أتعلق بهما
عندما أشرف على الغرق
وهما المدفئتان اللتان أتكوم أمامهما
عندما تنتابني القشعريرة
يداك كانتا دائماً
حمامتي سلام
فإذا تشاجرنا.. أصلحتا ما بيننا
وإذا أبكيتني
كفكفتا دموعي..

علماً بأن الشاعرة تجيد التحليل النفسي فلعلماء النفس أيضاً مذهبان، أحدهما يعتقد بأن نشر الخطأ وعرضه وتسليط الضوء عليه طريقة مثلى ليتجنب الإنسان هذا الخطأ. ويبتعد عنه.. وآخر يرى بأن تسليط الضوء على مكامن القوة والخير ونشر الفضيلة والإيجابية الموجودة في النفس البشرية هي أجدى لتجنب الأخطاء من عرض الخطأ.. وكلاهما على حق..

إلا أن شاعرتنا اتخذت الرأي الثاني، وهو توجيه مبطن وغير مباشر للتخلي عن العادات الموروثة. والاستبداد الذي يعيق حركة الخير في نفس الرجل..

يداك صديقتاي

قبل أن أكون صديقتك
وعلاقتي بهما
أرقى من علاقتي معك
إنني لا أخلط أبداً
بينك وبين يديك
فهما مسالمتان.. وأنت عدواني..
وهما متسامحتان.. وأنت متعصب
وهما مثقفتان... وأنت متوسط الثقافة..
وهما مائيتان... وأنت متخشب
إنني لا أخلط أبداً
بين حداثتهما.. وبين سلفيتك..
شكراً لأبوة يديك.. ياسيدي
شكراً لهما...
شرياناً... شرياناً..
فقد كانتا بيتي في زمن التشرد..
وسقفي في زمن العاصفة..
ووطني..
بعدما سحبوا سجادة الوطن من تحتي

ثم تختتم القصيدة بأنين الحائر الذي يشك في إمكانية الاصلاح. لكنه لن ييئس ويبقى متمسكاً بالأمل.

أيها الرجل الذي أعتز بصداقة يديه
إذا قابلت يديك بالمصادفة
في أي مطار.. أو أي مرفأ

أو في أي مقهى من مقاهي الرصيف

فسلم لي عليهما..

فهل سطر التاريخ توجيهاً أجمل معنى وأرق شاعرية.. للردع عن الخطأ.. وإنارة طريق السعادة... دون استفزاز أو إيذاء الشعور ودون استعطاف أو استجداء للعاطفة.

وهكذا تختم الشاعرة كتابها بسنفونية الحب بعيده العالمي "فالنتاين".. فتعزف لحن الخلود... ثم تنشر حبها واضحاً كالشمس رقيقاً كالنسيم فيه ألوان التفاني وجذور الإخلاص. وكل العطاء.

هذا يوم قديسي الحب... فالنتاين

وسأذهب إلى معبدك أنت

لأقدم نذوري

وأحرق بخوري

وأغسل قدميك بعطر النارنج

ليس عندي مكان آخر أذهب إليه

فكل الدروب توصل إليك

وكل الحمائم تطير إلى صدرك

وكل عشاق العالم

يطلبون بركاتك

وينتظرون معجزاتك..

سأبحث عن كل الأشياء..

التي تحرضك على مراسلتي..

وتحرضك على معازلتي..

ثم تعود لتغرقه في بحر الرجولة والقدوة... وتبقى هي على

الشط تأخذ منه وتتعلم وتعطيه الفضل في إيجاد نفسها..

يا أيها القديس الذي علمني

أبجدية الحب

من الألف إلى الياء..

ورسمني كقوس قزح

بين الأرض والسماء

وعلمني لغة الشجر

ولغة المطر

ولغة البحر الزرقاء..

أحبك...

أحبك...

أحبك...

ديوان امرأة بلا سواحل

امرأة بلا سواحل، عنوان يلامس شغاف القلب فيبعث نشـــوة التفوق، ويلغي حدود العالم، وأفق الدنيا التي تحدها مسافة نظـــر أو مساحة ظل.

امرأة بلا سواحل أعماق جريئة، اقتلعـــت جـــذور الخـــوف، وشطآن الوهم، وضفائر الإغراء لتتجدد كل يوم بلغز يترجم حجمـــها الحقيقي الذي يتحدى الزمن ويرفض الاستسلام، تتفجـــر فـــي كـــل الفصول ينابيع عطاء أكثر نقاء وحناناً واتزاناً وأشد صلابة وشموخاً وإباء.

من يقرأ للشاعرة سعاد الصباح سينتقل على أجنحـــة الفكـــر سابحاً في بحر الأحلام المنثورة إلى البلد الذي انبثق منـــه يراعـــها الوقاد، وفكرها الوثاب. في حكمته ظلال وارفة تتفيأ بظلـــها قلـــوب صابرة وعزائم متحفزة للانعتاق من كابوس الاحتلال.

وافتر ثغر الزمن عن قبس من شمس الحريـــة ذات إشـــعاع ساطع ينبعث من أنواره الدفء والحب والحيـــاة، وقـــد أطبـــق ذاك القبس وما أبدعه في اشعاره من حوافز، ودلالات، ومعانٍ على ركام وأنقاض الاحتلال العفن، والسيطرة الموروثة، والسلفية المتحجرة.

وخفقت أحرف الحرية في خريطة الأدب لتصبغ كل الألـــوان الباهتة بلون الحياة، وتحطم الحدود الأزلية، والأقفاص الذهبية التـــي فصلت بين المرأة وقلبها وبين الرجل والرجل ونفسه معلنة للـــروح البشرية بأن حروف الحرية هي المبتغى الأزلي الذي ينشده المرء.

امرأة بلا سواحل عشر قصائد هي استمرار لنـــداء اليقظـــة، ورجع الصدى لآلاف النساء اللواتي جمعهنّ تاريخ واحـــد وســـليقة

عربية واحدة في الصبر على المكاره، والحلم في احتمال الشـــدائد، وحب وتفان صادق، وإيمان بالله راسخ.

من بين تلك الأنقاض جلجل صوت ســـعاد الصبـــاح وكـــان لتواصل عطائها الثر لإزاحة الركام، وتبديد الظـــلام الـــذي يغلـــف العقول. ويجمد الفروق ديوانها الأخير إمرأة بلا سواحل. والذي تبدأ. بقصيدة تحيات إستثنائية لرجل إستثنائي.

لم تُرد الشاعرة لكلمات حبها أن تكون كالكلمات التي ذبلـــت على جدران العادات، أو كالتي فقدت معانيها على شطآن الأعـــراف أو كالتي بَهُتت ألوانها على صفحات البطاقات.

بل تريده حباً مبتكراً لم تمسه الشفاه، ولم تعانقه التفاهات تريده عارماً جياشاً في نهاية العام وبدايته، في كل زمان ومكـــان خـــارج حدود المادة التي تلونه وتقتله، تريده من القلب كما خلقه الله من حبل الوريد: لتبقى مع القصيدة.

عام سعيد
إني أفضل أن نقول لبعضنا
(حب سعيد)
ما أضيق الكلمات حين نقولها كالآخرين
أنا لا أريد بأن تكون عواطفي
منقولة عن أمنيات الآخرين.
أنا أرفض الحب المعبأ في بطاقات البريد.
وهذا أفضل أن نقول لبعضنا
(حبّ سعيد)

تريده حباً متحرراً من قيود التقاليد البالية والأعراف الخانقـــة

له.

رافضاً للحوار كالبيع والشراء حباً جديداً حديثاً ابن الحضـــارة في نهاية القرن العشرين لا كما هو معبأ في طيات الكتب العفنة منـذ آلاف السنين تقول:

حب يثور على الطقوس المسرحية في الكلام
حب يثور على الأصول
على الجذور
على النظام
حب يحاول أن يغير كل شيء
في قواميس الغرام
إني أريدك أنت وحدك.
أيها المربوط في حبل الوريد
كل الهدايا لا تثير أنوثتي
ولا القمر البعيد
أيها الرجل المسافر في دمي
ماذا سأفعل في كنوز الأرض
يا كنزي الوحيد؟؟
مادمت موجوداً معي
فالعام أسعد من سعيد

قد يبدو تمرد الشاعرة نوعاً من القسوة، وقد يعتقـــد البعـــض بأنها ترفض وجود الرجل كما وصفها أحد الكتـــاب. إلا أن الحـــب عندها صلاة مقدسة. تنصهر فيه اللهفة والشوق والحنان لتسرق مـن الزمن كل اللحظات وتملأها به.. تريده حباً بوسع الدنيا. بلا حـــدود

حباً جارفاً وعواطف ملتهبة، حباً يكتنز براءة الطفولة. بكل مشاعرها الصادقة وأحاسيسها الوقادة تريده حباً انتحارياً لا يخشى الأعـــاصير ولا تقتله الصدمات، تريده عارياً من الزيف والرياء، ناصعاً واضحاً كما الشمس، قوي البنيان دون أن يكون سلطان يأمر وينهي. تريـــده معقلاً للأمان وأيكة يشع منها الحنان والدفء والمحبة.

في قصيدة اعترافات امرأة شتائية:

حبي انتحاري
فلو رميتني في البحر، ذات ليلة
وجدتني أسير فوق الماء...
حبي طفولي
فلو لمست خصري مرةً
حلقت بين الأرض والسماء
فلا تعاقبني على طفولتي
فإنني من دونها
فراشة من خشب
وزهرة من ورق
ولوحة بيضاء
يا رجلاً حررني
من سلطة الزمان والمكان
لو كنت تدري، كم أنا مبهورة
وكم أنا سعيدة
وكم أنا أشعر بالأمان
أنا التي

كنت تناديني، إذا أردتني:
يا قمر الزمان..
يا من على يديه قد تشكلت أنوثتي
يا أيها المسؤول عن هندسة الخصر
وعن تموج الشعر
يا رجلاً عوضني بحبه
عن أجمل الأوطان

الحياة رجل وامرأة، والنغم وتر وعود والدنيا سماء وأرض. فلماذا يرسم الرجل لنفسه طريقاً خارج دائرة العواطف السامية. والمشاركة الإنسانية والإحساس المتبادل. لماذا يجثو الأنا على عواطفه فيخنقها ويحيلها إلى ساحة شققها الجفاف وفصلها عن ذاته. لهذا نرى الشاعرة سعاد الصباح تطرق جرس الإنذار مشيرة لخطو الفردية في التعامل بين الرجل والمرأة، ومشيرة إلى أن طبيعة الكون مخصصة للرجل والمرأة تقول في قصيدة "افتراضات" بالمكان والزمان، الطبيعة على الأرض وحتى قبة السماء:

إذا افترضنا..
بأنك لست حبيبي
وكيف أقول بأنني أنثى
إذا لم أخبئك تحت الجفون
وما قيمة العشق، يا سيدي
إذا لم يسافر ببحر الجفون؟
إذا ما رفعت ذراعك عني وسافرت يوماً
فكيف سيصبح شكل المكان..

أسائل نفسي
إذا ما ذهبت
إلى أين يذهب ضوء القمر؟
ومن أجل من ستضيء النجوم؟
ومن أجل من سيفوح الزهر؟
أيا رجلاً
يتجول في خلاياي
مثل الفضاء
ومثل القدر
أسائلُ نفسي:
إذا ما استقلنا من الحب يوماً
فمن سوف يرسم ألوان قوس قزح؟
ومن سوف يوقد نار الغروب؟
ومن سيحرك شوق الوتر؟
إذا ما افترضنا
بأنك لست حبيبي
من يملأ الكون شعراً جميلاً؟
ومن سيجمل أرض البشر؟؟

ثم تنتقل لقصيدة "بصمات" لتؤكد أيضاً مدى العلاقة التي تجمع المرأة والرجل. وكيف أن كلاً منهما طرف ليد واحدة وأحرف لكلمة واحدة هي الحياة في الأرض وفي السماء تقول:

إلى أيّ مدينة من مدن العالم
سأذهب

ومعك خرائط كل الأمكنة
وفي أي مقهى سأجلس
وأنت احتكرت أشجار البن
ورائحة القهوة
وبأية لغة سوف أتكلم
وبيديك مفاتيح لغتي
حاولت ترحيلك
إلى الوجه الثاني من القمر
فلما طلع القمر
عُدت مع أشعته
ووجدت وجهك مرسوماً على زجاج نافذتي
حاولت أن أدخلك إلى مدرسة داخلية
تتعلم فيها شيئاً من الحب
ولكن ناظرة المدرسة
أرجعتك في نهاية اليوم الأول
بعدما تعاركت مع جميع الأساتذة
وأضرمت النار في ثياب التلميذات
حاولت أن أقتلعك من تراب ذاكرتي
فوجدت أنك متشبث بأنسجتي
كنبات بحري
حاولت أن أقتلع رائحتك
من مسامات جلدي
فتساقط جلدي

ولم تخرج أنت...

بتلك الكلمات اللاهبة تعبر الشاعرة عن مدى العلاقة الأزلية، والتلازم الروحي قبل التلازم المادي، فلماذا لا يصغي كل منهما إلى الدور الذي فرضه القدر ووضعهما به..

في قصيدة "القمر والوحش" صراع ومعركة بين الحلم والأمل واليقظة والواقع. قاسية هي لحظات اليقظة من الحلم الوردي والأمنية الرقيقة – لكنها جميلة إن كانت تتحدى الواقع. بلحظة الانتصار على اليأس والألم.. على الخوف والقلق.. لماذا يغرس الرجل الألم في قلب السعادة .. ويقتلع البسمة قبل أن تتشكل – لماذا يزرع الكراهية قبل المحبة، والخوف والقلق قبل الأمان والاستقرار – ألأنه الرجل الأقوى أم هو الجهل الأعمى الذي ران على قلبه وعقله وسيطر على حركاته.

لنبقَ مع المعركة الجميلة – الصادقة المثيرة.

تتصارع في أعماقي رغبتان
رغبتي في أن أكون حبيبتك
وخوفي من أن أصبح سجينتك
يتصارع في داخلي بحران
بحر أنوثتي المتوسط
وبحر رجولتك
المزروع بالألغام والقراصنة
أواجه في حبي لك
خيارين لا ثالث لهما.
خيار الدخول إلى زنزانة صدرك النحاسي

وخيار الخروج إلى شمس الحرية

خيار الامتثال للتاريخ

وخيار التصادم معه

تتحول المعركة من صراع بين الحلم والواقع إلى هوة عميقة تفصل بين الإحساس والرؤيا. بين العين والقلب، بين الروح والجسد. فتمزق جدار الأمان وشرايين الوداد، عندما ترى في الحبيب رجلين مختلفين بكل صغيرة وكبيرة. فهو في قمة الحضارة عندما يمارس حياته اليومية في العمل في العلاقات العامة مع الآخرين، عندما يتكلم ويكتب وعندما يكون أباً وهو في قمة الأنا والنرجسية وعدم اللباقة والسلطوية عندما يكون رجلاً حبيباً أو زوجاً لذلك ترى سعاد الصباح وقد جمعت آلاف الأصوات النسائية من كل أطراف الوطن العربي وخرجت تمثلهم في الاحتجاج على نظام الفردية والتسلط في التعامل مع المرأة – فتقول:

أتمزق ألف قطعة

بين حضارتك على الورق

وعدوانيتك على النساء

بين حرائق كلماتك

وصقيع قبلاتك

بين مواقفك الأبوية

ومواقفك النرجسية

بين ليبراليتك التي لا حدود لها

ورجعيتك التي لا حدود لها

في داخلي

مسيرات نسائية طويلة
تبدأ من طنجة
وتنتهي في حضرموت
وشعارات مكتوبة بأحمر الشفاه
وأعلام مصنوعة
من خيوط جوارب قديمة
واحتجاجات ضد نظام الحزب الواحد
والرجل الواحد
والفراش المتعدد الجنسيات

ثم تدوي صرخة النساء على لسان سعاد الصباح على صفحات الزمان. لتعلن استمرار الاحتجاج، وصلابة الرفض للاستسلام: وعمق الأمل والرجاء في تغيير الواقع البالي وإعادة الحياة الحضارية إلى العقول الغافية الراقدة على التخلف والجمود، الثابتة في جذور التاريخ المدثر بالأنقاض والظلمات. فتقول في قصيدة امرأة بلا سواحل.

يا سيّدي:
مشاعري نحوكَ، بحرٌ ما لهُ سواحلْ..
ومَوقفي في الحبّ.. لا تقبلهُ القبائلْ..
يا سيدي:
أنتَ الذي أريدْ..
لا ما تريدُ تَغلِبٌ ووائِلْ..
أنتَ الذي أحبُّه..
ولا يُهِمُّ مُطلَقاً

إنْ حلّوا سفكَ دمي..
واعتبروني امرأةً..
خارجةً عن سُنَّةِ الأوائلْ..
يا سيدي
سوف أظل دائماً أقاتل
من أجل أن تنتصر الحياة
وتورق الأشجار في الغابات
ويدخل الحب إلى منازل الأموات
لا شيء غير الحب
يستطيع أن يحرك الأموات

امرأة بلا سواحل استمرار لمواجهة الحقائق والأعاصير التي تتلاعب بالمرأة وتحول بين صوتها وحنجرتها، متابعة للجرأة النادرة في عالم الأدب النسائي وإذكاء لشعلة الحرية التي أججتها الشاعرة سعاد الصباح ولم تزل تزيد في أوارها بالمزيد من القصائد الثائرة، ودوي للصرخة الحرة التي شقت لحمة السماء لتصل إلى الحق المسلوب علّها تعيده شيئاً فشيئاً. باسلوبها الرومانسي المعهود الذي تلبسه لقصائدها فتزيد من تألق الكلمات. ودفء المعاني وقوة المغزى شكلاً ومضموناً، فكراً وأداء، عمقاً وقيمة.

في النهاية يعيش القارئ مع هذه الحروف المضيئة ساعة من الزمن فينسى نفسه ويحلق معها إلى مصاف درجات السعادة التي يتمناها كل إنسان.. ويأخذ منها دوره ربما تكون أثمن من أي شيء..

لقد وردت أفكارها بطريقة سلسة سهلة شيقة بسيطة الكلمات

عميقة المعنى سهلة القراءة كبيرة الأثر... واضحة المقاصد. تحمل كل ألوان الجرأة الأبية والسلوك المهذب..

لقد شدّت فأطربت.. وحلقت فارتفعت وسمت.. ورسمت فجاءت ألوانها بأجمل ما خلق وإنهال قلمها السيال. يصب ألوان العاطفة والسمو كما العسل من الشهد... كلما ازددنا في قراءة تلك القصائد كلما ازددنا غوصاً في أعماق ومشاعر الشاعرة المرهفة الحس. والصادقة السريرة.. أمد الله بعمرها.. لتبق مشعلاً وضاء في قلب تلك الصحراء الجرداء.. ولتزيد في خارطة الأدب... وشيئاً منمقاً. ودرراً ثمينة لتساعدنا في قلب بعض المفاهيم. وتبقى نبع عطاء لكل محتاج لمثل هذه الدرر..

خـذ الـخـريطة
رتبها كما تشاء
فالـقارات أنـت
والـبحار أنـت
وأنـا أنـت
مـن اسمك تبدأ جغرافية المكان
ومـن عينيك تأخذ البحار ألوانها
ومـن ثغرك يولد الليل والنهار
ومـن إيقاعات صوتك
ومـن شرايين يديك
أولـد أنـا..
يـطاردني حـبك
كسمكة قرش لا تشبع
يـطاردني فـوق الماء، وتحت الماء
يختار نـقاط الضعـف في أنوثتي
ويعـتريني بلا هوادة.
حتى يصبغ دمي
جميع المحيطات باللون الأحمر.

سعاد الصباح